التغيير الاقتصادي والمالي

في خلافة عمر بن عبد العزيز .

الدكتور عماد الدين خليل

غدت كلمة «الاقتصاد» في العصر الحاضر . أمراً مخيفا يجثم على وجود الناس ويوجههم كما يشاء هو لا كما يشاءون .. وإن تقييم «الاقتصاد» ووضعه في مكانه الذي يجب ان يحتله في ميدان الحياة البشرية. اصبح من الصعوبة بمكان .. فما دام هذا القطاع اشد القطاعات حسية. واكثرها قربا من وجود الانسان المباشر الملموس. فسوف يعطيه الوضعيون قيمة اكبر من قيمته الحقيقية. ويفردون له مساحة اكبر بكثير من مساحته الحقيقية. ولقد ظل هذا التقييم الخاطىء للاقتصاد ينمو ويتضخم حتى بلغ الامر . باصحاب المدرسة المادية. الى القول بانه الحتمية الوحيدة في تاريخ البشرية. وانه هو ـ وحده ـ الذي يتحكم في صنع وجود الناس وتشكيل مصيرهم... اما من يتحكم به «هو» . ومن يجعله ينتقل من مرحلة الى مرحلة. ومن تكوين الى تكوين. فيقولون ان ديناميكيته الذاتية وحركته الجبرية هي التي تنقله عبر هذه المراحل والتكوينات...

والإنسان؟ الانسان ليس الاسنا في عجلة الاقتصاد الكبيرة التي تدور وتدور. ومن المحتم أن يدور معها الانسان، سرعة وابطاء. بناء على طبيعة الوجود القائم. والروح؟ والارادة؟ والعقل؟ والقيم الاجتماعية؟ والرغبات الذاتية؟ والطموح الانساني.. اين هي؟ يجيبون ان هذه جميعا ليست سوى نتائج او صور وقتية تعكسها مرآة الاقتصاد التي تحيط بالكون من أقطاره الاربعة!!

وليست خلافة عمر بن عبد العزيز إلا مثلا من التاريخ المشهود للرد على هذا التقييم الخاطىء.. سنتان وخمسة اشهر تمكن عمر خلالها ان يبين للعالم كيف يتمكن المسؤول المسلم من توجيه الاشياء والاحداث كما يشاء. وان يحرك مجريات التاريخ بالاتجاه الذي يريد.. وان يضع القيم والموازين لكل الاشياء

والموجودات والفاعليات التي هيأها الله سبحانه للانسان كي يسعد ويتطور. وينسجم مع نواميس الكون.

إن عمر ينظر في ميدان الاقتصاد . فلا يرى في حياة الناس الاقتصادية وتنظيماتهم المادية سوى جانب واحد من جوانب التعبير عن مدى قدرة الانسان المسؤول على التمسك بقيم الحق والعدل ومدى تجرده للكفاح من اجل هذه القيم. أو الانسياق وراء الرغبات الذاتية. والمصالح القريبة. والملذات العابرة حيث تسقط فكرتا الحق والعدل هاتان.. ومن ثم فان اعادة الامور الى نصابها في هذا المجال كما في غيره من المجالات – سوف تتحقق بمجرد التزام المسؤول مسؤوليته. وتجرده. وتأميم وجوده من اجل تحقيق هذه القيم. ومطاردة الظلم والباطل الممثلين بالاستغلال والاضطهاد والتحكم والاثراء على حساب الآخرين. والتزلف الى ذوي السلطان.. وغيرها كثير من الدوافع «الداخلية» التي تدفع الانسان الى «تشكيل» النظام الاقتصادي بالشكل الذي يحقق له هذه الرغبات وتلك الامتيازات. «١»

وإذن: فان عمر – كأي حاكم راشد – سيعرف الطريق الى تشكيل النظام الاقتصادي الكفيل باعادة الحق والعدل الى نصابهما. وتوزيع الطاقات الكونية المادية على أبناء الامة بالحق والعدل. ونشر السعادة والرفاهية على مدى المجتمع

---

(١) لا بد ان نفرق ، في أية دراسة اقتصادية ، بين جانبين : جانب النظم ، والجانب الفني التطبيقي ، وقد تبين ان «النظام» هو وليد رغبات الانسان الداخليه ، وتخلي المسؤولين عن واجبهم او التزامهم به . أما الجانب الفني التطبيقي ، كانتقال وسائل الانتاج من الشكل الاقطاعي الزراعي الى الرأسمالي التجاري الى الصناعي .. الخ فلا يعدو ان يكون جانبا من جوانب التطور العلمي الدائم الذي تشهده البشرية ، والذي يشكل حصيلة تجارب البشرية في تاريخها الطويل . هذا التطور الذي لا علاقة له بالنظم والمبادئ . كما أنه لا يحمل – في ذاته – أية حتمية مذهبية انهم إلا حتمية التطور العلمي القائم على تجميع التجارب .. وألا فأية حتمية دفعت جيمس واط الى اكتشاف الطاقة البخارية ، واندرسون الى اكتشاف الكهرباء وكريستوفر كولومبس الى الانطلاق الى امريكا؟ إن لم تكن الرغبة في (الاكتشاف) وتطوير الوسائل القديمه . وإضافة منجزات علمية جديدة، وهي امور لا تعدو ان تكون دوافع غريزية داخلية .

الاسلامي .بدلا من الظلم والاستغلال والتحكم.. وهذا الطريق واضح. لان معالمه محددة بالقرآن وسنة الرسول العظيم عليه السلام وسوابق الخلفاء الراشدين.. وليس على عمر بن عبد العزيز –اذن– إلا أن يكشف من جديد عن روح هذا النظام، ويعيده الى توجيه هذا الجانب الحيوي من وجود الامة.. ليس عليه سوى أن يستلهم الروح التي هيأت لهذا النظام تطبيقا عمليا رائعا قدم للبشرية أروع مثل للعدالة والسعادة الاجتماعية والرفاهية، وقضى على كل مظاهر الاستغلال والاضطهاد.. وما دام عمر يمتلك الايمان العميق والبصيرة النافذة، فقد تهيأ له اذن ان يستلهم تلك الروح وان يستعيد ذلك النظام، وان يحدث انسجاماً عجيبا بينه وبين الواقع الذي اثقلته انحرافات المسؤولين السابقين وملأته بالعقبات. وسنستعرض في هذا البحث بعض جوانب منجزات عمر في هذا الميدان، ثم نتفحص نتائجها بعد ذلك .

. . . . . .

يبدأ عمر خطوته الاولى في هذا الميدان، كما في الميادين الاخرى، من الداخل، من داخل نفسه ووجدانه اولا. وداخل بيته واهله ثانيا. وداخل مقر حكمه ثالثا، طارحا شعار « إنه لينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي » «٢» ثم ينتقل بعد هذا الى « الخارج » لينشر العدل على الجميع بعد أن كان قد اجتاز امتحاناً قاسيا في التجرد الكامل عن الاهواء والاستغلال والمصالح القريبة باي شكل كانت.. فهذا هو الطريق الذي سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون من بعده: كانوا يبيتون الليالي الطوال جائعين، يشدون الحجارة على بطونهم الخاوية، من اجل ان تشبع أمة المسلمين.. كانوا في ايام الضنك والمجاعة لا يأكلون الا ما يأكل الناس جميعا، كي يشعروا بشعورهم، ويذوقوا تجربتهم، ويسرعوا في ايجاد الحلول لبؤسهم وشقائهم.. ويطلب الصحابة من عمر بن الخطاب يوم المجاعة، ان يتخلى عن أكل الزيت فقد اضعفه وبسر وجهه، وهو الخليفة الذي يجب ان يطعم ما يمكنه من تحمل أعباء مهامه التي لا تنتهي ..فيجيبهم « وكيف يعنيني أمر الرعية اذا لم يمسني ما يمسهم »؟.. ومرة اجتاز النبي– عليه السلام– طريقا من طرق المدينة، فتقدم اليه بعض

(٢) ابن الجوزي ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١١١ ، ابن سعد ، الطبقات ٥/ ٢٥١ – ٢٥٢.

الصحابة مصفري الوجوه. مرهقي الخطوات .يشكونه الجوع.. ولكي يؤكدوا له مدى فعله باحشائهم يكشفون عن بطونهم فاذا بكل واحد منهم قد شد على بطنه قطعة من حجارة يسكت بها جوعة الاحشاء.. فيبتسم الرسول المعظيم ويكشف عن بطنه فاذا به قد سبقهم وشد عليها قطعتين من الحجارة !! .. ومراراً عديدة كان كبار الصحابة يتخلون عن ثرواتهم التي كدحوا من أجلها سنين طوال. يتخلون عنها كليا ويستأنفون نشاطهم من نقطة الصفر.. ويسأل الرسول أبا بكر ، هذا الذي أنفق في سبيل الدعوة « الاربعين الف درهم » التي كان يملكها. يسأله: ماذا ابقيت لعيالك؟ فيجيبه: أبقيت لهم الله ورسوله!!.. وعثمان بن عفان يشتري بئر « رومة » من أحد اليهود بآلاف الدراهم كي يشرب المسلمون. ويتبرع في عام مجاعة قاسية بقافلة كاملة تحمل شتى البضائع .. ويجهز جيش العسرة بالف من وسائط الركوب ...

ينظر عمر بن عبد العزيز الى هذه الصور النادرة. وغيرها كثير. فيعرف الطريق.. أن يبدأ الانقلاب . في ميدان العدل الاجتماعي . من الداخل.. وحينذاك سيعرف كيف يعلم اجهزة الدولة وادارييها الطريق الذي يجب عليهم أن يسلكوه لتحقيق العدل. والغاء الاضطهاد والاستغلال الغاء.. ومن لم يستجب منهم. فان عمر سيعرف كيف ينعلمه عن الملذات !!

عاش عمر بن عبد العزيز. قبل الخلافة. مترفاً يجر اثوابه على الارض بخيلاء. وتفوح رائحة عطره عبر الطرقات التي يمر بها. ويمشي مشيته « العمرية » التي كانت الجواري يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها.. وكانت الحلة تشترى له بالف دينار فاذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها. وكان يتأخر عن الصلاة احيانا لكي يتم تصفيف شعره.. وكان العنبر يرى على لحيته كالملح وكان يقول : لو ضافني اهل قرية لوجدت ما يطعمهم.. ويقول: لقد خفت ان يعجز ما قسم الله لي عن كسوتي . وما لبست ثوبا قط فرآه الناس، حتى

خيل الي انه قد بلي.. ووصفه المؤرخون بانه كان من اعظم الامويين ترفهاً وتملكاً، وأنه غذي بالملك ونشأ فيه.. وعرف بأنه «شامة بين الناس» وحرص على تقليده الظرفاء والمتنعمون .

فماذا بعد الخلافة؟ ان المجال لا يتسع هنا لعرض صور تجرده الفذ العجيب وبطولته النادرة في حمل أمانة الحكم والتزام مفاهيم العدل على اروع ما تكون هذه المفاهيم «٣».. ولكنا نكتفي هنا بعدد من شهادات اولئك الذين عاصروه وشهدوا تجربته النادرة عن كثب .. علماء كبار. ورجال حاشية. ومواطنين. وملوك. وامراء. وأبناء. وأقرباء. ومتصوفين. ومؤرخين.. كل منهم يقص شهادته عن الخليفة الذي آثر الجوع والحرمان لكي تشبع أمته. وتطوى صور الفقر والظلم والألم.. وها هم الشهود :

رجاء بن حيوة: لما استخلف عمر قوموا ثيابه. اثنا عشر درهما: كمته وعمامته وقميصه وقباءه وخفيه ورداءه.«٤»

مواطن من اهل الشام: رأيت عمر بخناصرة يخطب الناس. عليه قميص مرقوع .«٥»

امبراطور الروم: اني لست اعجب من الراهب إن أغلق بابه. ورفض الدنيا. وترهب وتعبد. ولكن اعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها.«٦»

مواطن من اهل المدينة: رأيت عمر بالمدينة وهو أحسن الناس لباساً. ومن اطيب الناس ريحا. ومن أحفل الناس في مشيه. ثم رأيته. بعد. يمشي مشية الرهبان!

---

(٣) انظر : فصل (المنحى السياسي) من كتاب (منهج الاشتراكية في خلافة عمر بن عبد العزيز) الذي سيصدر قريباً عن هذه الدار .

(٤) ابن الجوزي ، سيرة ، ص ١٠٦ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٨٩ .

فمن حدثك ان المشي سجية فلا تصدقه. بعد عمر !! «٧» .

خادم عمر: ان عمر لم يتملأ من الطعام. من يوم ولي حتى مات «٨».

مواطن من دمشق: ولي عمر بعد صلاة الجمعة. فانكرت حاله في العصر «٩».

يونس بن ابي شبيب: شهدت عمر بن عبد العزيز، وان حجزة ازاره لغائبة في عكنه. ثم رأيته بعد ما استخلف ولو شئت ان أعد أضلاعه من غير أن امسها لفعلت «١٠» !!

عبد العزيز بن عمر: كانت غلة ابي حين افضت الخلافة اليه اربعين الف دينار، فلما توفي غدت اربعمائة دينار. ولو بقي لنقصت «١١»!!

عبد الله بن دينار: لم يرتزق عمر من بيت مال المسلمين شيئا. ولم يرزأه حتى مات «١٢» .

مسلمة بن عبد الملك: رحم الله عمر. والله لقد هلك وما بلغ له ابن قط شرف العطاء «١٣» .

عمرو بن ميمون: اتيت سليمان بن عبد الملك فرأيت عنده عمر. وهو كأشد الرجال واغلظهم عنقا. فما لبثت بعد ما استخلف. سنة. الا اتيته. فخرج يصلي بنا الظهر وعليه قميص ثمنه دينار .. وقد نحل ودقت عنقه «١٤».

مالك بن دينار: يقولون مالك زاهد. اي زهد عندي؟ انما الزاهد هو عمر بن عبد العزيز أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها جملة «١٥» !!

---

(٧) ابن سعد، طبقات ٥/٢٤٤.

(٨) المصدر السابق ٥/٢٥٤.

(٩) المصدر السابق ٥/٢٥١.

(١٠) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٥٥.

(١١) المصدر السابق، ص ١٥٥.

(١٢) ابن سعد، طبقات ٥/٢٩٦.

(١٣) ابن الجوزي، سيرة ص ٢٧٤.

(١٤) ابن سعد، طبقات ٥/٢٩٧.

(١٥) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/٢٠٢.

ابو سليمان الداراني: كان عمر ازهد من اويس القرني، لأن عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها، ولا ندري حال اويس لو ملك ما ملكه عمر، كيف يكون؟ ليس من جرب كمن لم يجرب !! «١٦»

* * * * * * * * *

إن روعة امتحان التجرد الذاتي هذا، لتتبدى في حياة عمر بن عبد العزيز بالذات، كعجيبة من عجائب الايمان الذي يصنع البطولات .. فقد رأينا كيف كانت حياته قبل تحمله مسؤولية الحكم: تدللا وترفها وتنعما وتأنقا وتظرفا .. حياة محاطة بكل أنواع النعيم المباح .. وها هو اليوم ينقلب على هذه الحياة، ويختار الطريق الصعب، والتجرة المرة .. إن هذا «الاختيار» كان لابد منه في نظر خليفة راشد كعمر بن عبد العزيز، اذا ما اريد لمبادئ العدل الاجتماعي ان تتحقق .. وتسود .

ولكن ايكتفي عمر باجتياز هذا «الامتحان» وحده؟ فاين هي اجهزة الدولة الاخرى اذن؟ وماذا سيفعل حزب بني امية الحاكم، والولاة، وكبار الموظفين ببرنامج عمر، اذا لم يجتازوا هم ايضا كمسؤولين ذات الطريق الصعب الذي اجتازه عمر؟ إن اجهزة الدولة ستصاب بالتصدع والخلل لو حدث وان بقي هؤلاء جميعا دون اجتياز امتحان التجرد هذا .. وان برنامج الخليفة سوف لن يجد مجاله الطبيعي، قبل ان يتمكن كل المسؤولين في الدولة من أن يفطموا نفوسهم وينجحوا في الامتحان.. والذين سيفشلون منهم، فان في الامة من الطاقات ما يتيح لعمر استبدالهم. فلم يكن تورع عمر ـ اذن ـ كما يقول ابو الحسن الندوي «مقتصرا على ذاته ـ كما يفعل كثير من الزهاد ـ بل كانت سياسة عامة كان يريد ان يطبقها تطبيقاً دقيقا على الدولة ورجالها. فكان يطلب منهم ويعزم عليهم ان يكونوا متورعين في اموال المسلمين، لا ينفقون منها الا القدر اللازم، وان يكونوا اشحة على انفسهم اسخياء على المسلمين.. وكان حريصا على أن يوفر على المسلمين أموالهم، ويعتقد أن الدرهم دم، فلا يجوز ان يجري في غير عروقهم، ولا يرى ان يضيع في «الكماليات»

---

(١٦) المصدر السابق ٩/٢٠٨.

و « الشكليات » «١٧» .

الدرهم دم!! فلا يجوز ان يجري في غير عروقهم.. ذلك اذن هو شعار الخليفة العادل. وهذا هو تقييمه لكدح الامة: وحرصه على الا يعود الا اليها وليبدأ ـ اولا ـ بالاقربين من بني امية اولئك الذين استنزف بعضهم الكثير من اموال الدولة لحسابهم الخاص.. ليبدأ بهم اولا. فهذا هو منطق العدل الاجتماعي في الاسلام: ان يبدأ الانسان بنفسه واهله ثم ينتقل مباشرة الى عشيرته وقومه.. قبل ان يضع خطوة واحدة في الخارج ..

وتشهد الايام الاولى من خلافة عمر تجريدا واسع النطاق لكثير من اموال واملاك بني امية. ظلت تنمو وتتضخم في الماضي.. وها هي الان ترد الى بيت مال المسلمين .لكي ياخذ العدل الاجتماعي مجراه. وتغدو اموال الامة للامة. لا يستأثر بها أحد دون أحد.. أموال وأملاك من شتى الصنوف والانواع . ومن مختلف الطرق وسائر الاساليب. جرد عمر بني امية منها. ومزق مستنداتها واحدا واحدا. وردها الى مكانها الصحيح: مظالم وجوائز وهدايا ومخصصات استثنائية وضياع وقطائع. تجمعت كلها على شكل ممتلكات ثابتة ونقود سائلة. بلغت في تقدير عمر شطرا كبيرا من اموال الامة جاوزت النصف «١٩»

ولا تمضي سوى فترة قصيرة. حتى يجد امراء بني امية انفسهم مجردين الا من حقهم الطبيعي المشروع .فيضجون ضد سياسة عمر هذه، ويعلنون معارضتهم الصارمة لها. فماذا يكون جواب عمر ؟ لنستمع اليه : « والله لوددت ان لا تبقى في الارض مظلمة الا رددتها. على شرط الا ارد مظلمة الا سقط لها عضو من اعضائي أجد المه. ثم يعود كما كان حيا!! فاذا لم تبق مظلمة الا رددتها سالت نفسي عندها !! » «٢٠» إلا إن بني امية لم ييأسوا من

---

(١٧) ر. جبل التفكير والدعوة في الاسلام . ص ٣٠.

(١٨) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز . ص ٥٨ - ٥٩ . ١٤٧ - ١٥١.

(١٩) ابن الجوزي . سيرة . ص ١١٥.

(٢٠) ابن عبد الحكم . سيرة . ص ١٤٧ - ١٥١.

هذه الفدائية النادرة ازاء حقوق الامة. وهم الذين ما خطر ببالهم يوما ان يجردوا هذا التجريد.. ومن ثم يجتمعون ويدفعون احد ابناء الوليد الى كتابة رسالة شديدة اللهجة ضد سياسة عمر..

ويجيء رد عمر على الرسالة حمماً من نار الحق تتفجر من كل كلمة فيها «...ويلك وويل امك.ما اكثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة .. رويدك فانه لو طالت بي حياة . ورد الله الحق الى اهله ، تفرغت لك ولاهل بيتك فأقمتكم على المحجة البيضاء..فظالما تركتم الحق وراءكم، ومما وراء هذا ما أرجو ان يكون خير رأي ابته: بيع رقبتك فان لكل مسلم فيك سهما في كتاب الله !!«١»

وما أن ييأس امراء بني أمية من صمود عمر إزاء معارضتهم الجماعية الشديدة هذه. حتى يلجأوا الى اسلوب الحوار الهادئ. علهم يصلون - عن طريقه- الى ما يشتهون ..فيتكلمون معه يوما. مستثيرين فيه نزعة القربى. وعاطفة الرحم. فيجيبهم بان يتسع ما لي «الخاص» لكم.واما هذا المال «العام» فحقكم فيه كحق رجل بأقصى نرك الغماد ...والله اني لارى ان الامور لو استحالت حتى يصبح اهل الارض يرون مثل رأيكم . لنزلت بهم بائقة من عذاب الله «٢٢» ويدخل هشام بن عبد الملك على عمر يوما ويقول: يا أمير المؤمنين اني رسول قومك اليك» وان في انفسهم ما جئت لاعلمك به. انهم يقولون : استأنف العمل برأيك فيماتحت يدك.وخل بين من سبقك وبين ما ولوا بماعليهم ولهم. وبديهة كخطف الشهاب يجيب عمر: ارأيت اناتيت بسجلين احدهما من معاوية والاخر من عبد الملك. فبأي السجلين آخذ ؟ فيقول هشام بالاقدم. فيرد عمر: فاني وجدت كتاب الله الاقدم. فانا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي وممن سبقني. «٢٣»

---

(٢١) ابن عبد الحكم ، سيرة ، ص ١٤٧ - ١٥١ .

(٢٢) ابن الجوزي ، سيرة ، ص ١١٤ .

(٢٣) المصدر السابق ، ص ١١٨ - ١١٩ .

واذ يعجز رجال بني أمية عن جعل عمر يعزف أويلين عن سياسته ازاءهم. يلجأون الى النساء. ويدفعون اليه عمته فاطمة بنت مروان. وما أن تدخل هذه عليه حتى يدعو عمر بدينار من ذهب. وبجمرة من نار . وقطعة من لحم. ثم يلقي الدينار في النار وينفخ فيه حتى يغدو قطعة من نار. ثم يرفعه ويلقيه على قطعة اللحم فتنشش وتقتر . ثم يلتفت الى عمته قائلا : اي عمة. اما تأوين لابن اخيك من مثل هذا..«٢٤» وتؤخذ العمة بهذا المشهد المؤثر . وتلتفت الى عمر طالبة منه أن يتكلم.. واسمعوه يقول. وكأنه يرسم لوحة فنية رائعة للعدالة الاجتماعيةالتي جاء الاسلام لكي يجعلها تفجر الخير والنعيم على الجميع «ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا.. الى الناس كافة. ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهرا شربهم سواء! ثم ولي ابو بكر فترك النهر على حاله. ثم ولي عمر فعمل عملهما. ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك ووليد وسليمان حتى افضى الامر الي وقد يبس النهر الاعظم. فلم يرد اصحابه حتى يعود الى ما كان عليه». «٢٥» وها هو عمر بن عبد العزيز يرفع المعول لكي يعمق المجرى ويعيده الى ما كان عليه: نهرا دفاقاً يوزع العدل والخير على كل انسان.. وينقل الثمار الحلوة الى كل بيت..

ولم تشأ العمة أن تغادر المكان قبل أن تطالب عمر بجراياتها التي كانت تتسلمها من الخلفاء السابقين . ويجيبها الخليفة بنبرة اسى : انهم كانوا يعطونك من مال المسلمين . ليس ذاك المال لي فاعطيكه . ولكني اعطيك مالي ان شئت ! ! فتسأله عمته : وما ذاك ؟ فيجيبها : مائتا دينار . فهل لك بها ؟ فتقول : وما يبلغ مني عطاؤك ؟ فيجيب : لا امتك غيره يا عمه ! ! . . . وتنصرف عمته . كما انصرف من قبل رسل بني مروان . «٢٦»

---

(٢٤) المصدر السابق . ص ١١٢.

(٢٥) ابن الاثير . الكامل في التاريخ ٥ : ٦٤.

(٢٦) ابن عبد الحكم . سيرة ص ٦٢ ... ٦٤.

أعيت بني مروان كل الحيل إزاء صلابة عمر في تنفيذ برنامجه الاجتماعي معهم . وقرروا أخيراً أن يستخدموا سلاحهم الاخير : المقاطعة والرفض . فاستدعوا احدهم وطلبوا منه ان يدخل على عمر ويعلمه انه لولا الخوف من غضبه لرد عليه كل منهم مبلغ العشرة دنانير التي اجراها عليهم .. ولكن رد عمر الحاسم سرعان ما يجيء كحد السيف « ... لا والله العظيم . لا اعطيكم درهما الا ان يأخذ جميع المسلمين ... » . وخرج الرسول ليقول لهم : انتم فعلتم بانفسكم ! ! تزوجتم الى عمر بن الخطاب بنت عاصم ابنه فجئتم بمثل عمر بن عبد العزيز .! ! «٢٧»

وسرعان ما تتلاشى السمة الجماعية لمعارضة بني امية . بعد ما رأوا من صلابة عمر ازاء أموال الامة . وقالوا : ليس بعد هذا شيء «٢٨». واخذ كل منهم يسعى .. على انفراد — ليسترد ما يستطيع ان يسترده من اموال . ولكن عمر الذي وقف ضد رغباتهم مجتمعين . لا يعجزه ان يتصدى لكل واحد منهم على انفراد . ويعلمه ان حق الامة لا يمكن ان يكون في يوم من الايام موضعاً للمساومة .. وهذا عنبسة بن سعيد بن العاص يدخل عليه يوما . ليطالبه بمال كان قد كتب له به سليمان بن عبد الملك . مقداره عشرون ألف دينار . فيسأله عمر بلهجة بلغت في استنكارها حد السخرية : عشرون الف دينار تغني اربعة آلاف بيت من المسلمين وادفعها الى رجل واحد ؟ والله مالي الى ذلك من سبيل . فيسلمه عنبسة كتاب سليمان الذي يضم «صكاً» بالمبلغ المذكور . فيقول عمر : لا عليك ان يكون معك فلعله ان يأتيك من هو أجرأ على هذا المال مني فيأمر لك به . «٢٩» ورحم الله الامام احمد بن حنبل الذي كان يقول عن عمر : ما كان أشده على بني أمية !! «٣٠»

---

(٢٧) المصدر السابق . ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٢٨) المصدر السابق . ص ٥٨ - ٥٩.

(٢٩) المصدر السابق . ص ٥٨ — ٥٩.

(٣٠) ابن الجوزي . سيرة . ص ١٢٠.

ولا يقف عمر عند حد استرداد الأموال من بني أمية وردها الى بيت المال . بل يخطو خطوة اخرى ويعلن لابناء الامة الاسلامية ان كل من له حق على أمير او جماعة من بني امية . او الحقته منهم مظلمة . فليتقدم بالبينة لكي يرد اليه حقه .. وتقدم عدد من الناس بظلاماتهم وبيناتهم ؛ وراح عمر يعيدها واحدة بعد الاخرى : اراض ومزارع واموال وممتلكات . «٣١» ومرة بعث اليه واليه على البصرة برجل اغتصبت ارضه . فرد الخليفة اليه ارضه ثم قال له : كم انفقت في مجيئك الي ؟ قال : ياأمير المؤمنين تسألني عن نفقة وانت قد رددت علي ارضي . وهي خير من مائة الف ؟ فاجاب عمر : — انما رددت حقك . ثم امر له بستين درهما . كتعويض له عن نفقات سفره «٣٢».

بعد ان ينهي عمر كفاحه على جبهة الحزب الحاكم من بني امية . ينتقل الى الخارج ويبدأ اول ما يبدأ بعماله وموظفيه . فهم — من جهة — القدوة التي يحذو حذوها ابناء الامة جميعا . وهم — من جهة اخرى — المسؤولون الذين يجب ان يتحملوا مسؤوليتهم كاملة . والا يستغلوا مناصبهم لحسابهم الشخصي مهما ضؤلت قيمة هذا الاستغلال . يبدأ عمر . طالبا منهم ان يقدروا اموال الامة حق قدرها . والا يضيعوها في «الكماليات» و «الشكليات» الادارية . وان يتبعوا سياسة التقشف في اجراءاتهم المختلفة . كتب الى ابي بكر بن عمرو بن حزم . واليه على المدينة . وكان هذا قد ارسل الى الخليفة السابق سليمان يطلب اوراقا لتمشية اموره الادارية «اما بعد : فقد قرات كتابك الى سليمان تذكر انه قد كان يجرى على من كان قبلك من امراء المدينة من القراطيس «الاوراق» لحوائج المسلمين كذا وكذا . فابتليت بجوابك فيه . فاذا جاءك كتابي هذا فأرق القلم واجمع الخط . واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة فانه لا حاجة للمسلمين في فضل قول اضر مالهم ...» «٣٣» . وكتب رسالة اخرى اليه يقول « اما بعد فقد قرات كتابك الى سليمان تذكر فيه انه كان يقطع لمن كان

(٣١) المصدر السابق . ص١٠٤ ؛ ابن عبدالحكم . سيرة . ص ٦٠-٦١ ، ١٤٦٠-١٤٧.
(٣٢) ابن عبد الحكم . سيرة ص ١٤٦ - ١٤٧.
(٣٣) المصدر السابق ص ٦٥.

قبلك من امراء المدينة من الشمع كذا وكذا يستضيئون به في مخرجهم. فابتليت بجوابك فيه. ولعمري لقد عهدتك يا ابن ام حزم وانت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة من غير مصباح!! ولعمري أنت يومئذ خير منك اليوم. ولقد كان في فتائل اهلك ما يغنيك... » «٣٤». وكتب وهب بن منبه الى عمر: اني فقدت من بيت مال اليمن دنانير. فكتب اليه: اني لست أتهم دينك ولا امانتك ولكني أتهم تضييعك وتفريطك. وانما انا حجيج المسلمين في مالهم «٣٥».

لم يكتف عمر بفرض سياسة التقشف على عماله وموظفيه بل اتخذ اجراءات عديدة اخرى. كضمانات عملية لا لزامهم حدود وظائفهم كخدام مسؤولين امام الخليفة والامة. وعدم استغلال مراكزهم لكل مامن شأنه ان يحقق مصلحة خاصة ويلحق بالامة ظلما واستغلالا. فمنعهم من مزاولة النشاط التجاري قائلا: « لايحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو عليه. فان الامير متى يتجر يستأثر ويصيب أمورا فيها عنت. وإن حرص على الابتياع » «٣٦» وبعد سبعة قرون جاء ابن خلدون وكتب في مقدمته. بعد تجارب طويلة ودراسة واسعة ما يصادق فراسة عمر بن عبدالعزيز وحكمته البالغة. حيث قال « ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية ». «٣٧» كما منع عمر عماله وموظفيه من قبول الهدايا لان فيها شبهة رشوة ومجالا لاستغلال المنصب لتحقيق مصلحة ذاتية. كما ألغى هدايا النوروز والمهرجان الفارسية لنفس السبب «٣٨». والغى السخرة بانواعها لانها ظلم اجتماعي سافر وطريق للموظفين الى استغلال ابناء الامة لحسابهم الخاص «٣٩»

---

(٣٤) المصدر السابق ص ٦٠.

(٣٥) المصدر السابق ص ٩٩.

(٣٦) المصدر السابق ص ٩٩.

(٣٧) عن الندوي: ابو حامد الغزالي ص ٢٧.

(٣٨) الطبري: تاريخ ٥٦٩/٦.

(٣٩) ابن عبد الحكم: سيرة ص ٩٩.

ويتلفت- خلال مطاردته الظلم وتعزيزه العدل- فيرى ان مساحات واسعة من اراضي الدولة ومراعيها قد اغتصبت من قبل امراء الدولة وكبار موظفيها؛ فيحطم هذا الاحتكار ويعلن « ونرى ان الحمى يباح للمسلمين عامة....وانما الامام فيها كرجل من المسلمين، انما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء»[٤٠].

إزاء هذه الشدة والصرامة التي اخذ عمر بها نفسه واهله وحاشيته وعماله وموظفيه. نجد صورة اخرى لعمر، صورة الخليفة الأب الذي ينظر الى ابناء امته نظرة ملؤها الشفقة والرحمة والحرص على نشر العدل على الجميع. وعدم ذهاب قطرة واحدة من عرق مواطن أو دمعه أو دمه عبثا... إنه مسؤول عن كل قطرة تذهب جفاء لاي مواطن في اي مكان... فما هذه القطرة الا الجهد والكدح والنصب التي بذله ذلك المواطن من اجل ان يحيا حياة اكثر رخاء، وان ذهابها يعني بوضوح اغتصاب هذا الجهد لمصلحة انسان او فئة ما. وان عمر لا يكتفي بالقاء نظرة الحنو هذه. ولكنه وهو المسؤول الذي يتميز بالايجابية والفاعلية. يتخذ الخطوات الكفيلة بتحويل هذه النظرة الى واقع عادل يعم خيره على الجميع :

اولاً :إنه يعمل على ازالة كل الضرائب المجحفة التي كانت قد فرضت على الامة الاسلامية من اجل تنمية موارد الدولة دون وجه حق، فيلغي « الضرائب اللاشرعية »[٤١]. ويشير الطبري الى عدد من هذه الضرائب التي امر عمر بالغائها كالايين[٤٢] واجور الضرابين وهدايا النوروز والمهرجان اللتين غدتا اشبه بالضرائب الاجبارية، واجور النيوج :اي رسول السلطان الذي يسعى بالكتب -واجور البيوت ودراهم النكاح[٤٣]. واصدر عمر كتابا وزعت نسخه على العمال ليقرؤوه على الناس مؤكدين الغاء

---

(٤٠) المصدر السابق ص ٩٧ ، ابن سعد : الطبقات ٥/٢٨١.

(٤١) المصدر السابق ص ٩٨ .

(٤٢) الآيين معناها (العادة) ، والمقصود بها الضرائب على تنوعها ، وهو ما تدل عليه الكلمة الانكليزية Custom : فلهاوزن ، الدولة العربية وسقوطها ص ٢٩٣.

(٤٣) الطبري ، تاريخ ٦/٥٦٩.

هذه الضرائب المجحفة «٤٤» كما الغى عمر العشور عن كافة الفئات من غير المزارعين وحدد دافعي الضرائب من غير المسلمين بقطاعات ثلاث : المزارعين ، والصناع واصحاب الحرف ، والتجار. اما المسلمون من التجار والصناع ،والحرفيين فليس عليهم ان يؤدوا لبيت المال سوى الزكاة . واما مزارعيهم فعليهم ان يدفعوا — ايضا — الضريبة العشرية او الخراجية بناء على زمن تملكهم الارض «٤٥» . والغى الخمس عن المعادن واخذ الصدقة بدلا عنها «٤٦». كما اسقط المكوس قائلا « اما المكس فانه البخس الذي نهى الله عنه « ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين » غير انهم كنوه باسم اخر «٤٧» ورفع الجزية عن اعناق الذين اسلموا احدثا . والذين لم تشأ السلطات الاموية السابقة ان تسقط عنهم هذه الضريبة حرصا على استنزاف مزيد من الاموال .

ثانيا: ويؤكد عمر على عماله باتباع اكثر الاساليب عدلا في جباية الضرائب المشروعة ويشدد عليهم في ان يراعوا ظروف المزارعين ودافعي الضرائب كي لا يلحقهم اذى او يصيبهم حيف . ويأمرهم بان يتحلوا بالمرونة الكافية التي تتيح لهم تقليص نسبة الضرائب في المواسم التي يقل فيها مستوى الانتاج الزراعي لسبب من الاسباب . واننا نلمح لهجة الوعيد والتهديد التي يخاطب بها الخليفة عماله في كل مكان. طالبا منهم التزام الحق والعدل في اساليب الجباية فعن هذا الطريق بالذات «اي اسلوب الجباية » كان بامكان العمال والموظفين — لو لم يجابهوا بهذا الوعيد والتشدد — ان ينسفوا كل المكتسبات التي جنتها الامة من الانقلاب الاقتصادي الذي احدثه عمر . ففي رسالة بعث بها الخليفة الى عامله على اليمن يقول «... انك قدمت اليمن فوجدت على اهلها ضريبة من

---

(٤٤) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر ص ١٦٠ .

(٤٥) المصدر السابق ص ٩٨.

(٤٦) ابن سعد ، الطبقات ٥/٢٦٠.

(٤٧) ابن عبد الحكم ، سيرة ص ٩٨ ، ٩٩.

الخراج مضروبة، ثابتة في اعناقهم كالجزية. يؤدونها على كل حال: ان أخصبوا أو أجدبوا، وحيوا أو ماتوا، فسبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين! إذ اتاك كتابي هذا فدع ما تنكر من الباطل الى ما تعرفه من الحق، ثم إئتنف الحق فاعمل به بالغاً بي وبك. وان احاط بمهج انفسنا. وان لم ترفع الي من جميع اليمن الا من حفنة من كتم، فقد علم الله اني بها مسرور اذا كانت موافقة للحق» «٤٨».

وكتب اليه رسالة اخرى يعلمه فيها ان من سبقه من عمال على اليمن كانوا يأخذون مقادير ثابتة من الزكاة من أهاليها، سواء زادت رؤوس اموالهم ام نقصت ثم يقول «... ولعمري ان هذا للجور حق الجور. فاذا جاءك كتابي هذا فخذهم بما ترى عليهم — من الحق ثم أقسم ذلك على فقرائهم ... فوالله لو لم يأتني من قبلك إلا كفا لرايته من الله قسماً عظيما «٤٩».

وكتب الى عامل آخر له يقول «بلغني ان عمالك يخرصون — اي يتكهنون ويحكمون بالظن — الثمار على اهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون به، فيأخذونها قرفاً — اي بثمن بخس — على قيمتهم التي قوموها» ثم أمر برد فرق السعر الى أصحابه «٥٠». كما أصدر أمره الى جباة الخراج. الايأخذوا من الاهالي من الدراهم ما زاد وزنه على اربعة عشر قيراطاً وهو. ماامر به عمر بن الخطاب. وقد رأى ان العمال كانوا يأخذون دراهم اثقل وزنا من تلك التي فرضها ابن الخطاب رضي الله عنه مما كان يؤدي الى زيادة فاحشة في الضرائب التي كان يدفعها الاهالي «٥١». وكي يقطع الطريق على اية محاولة للتلاعب، أمر بتوحيد المكاييل والموازين في جميع انحاء الدولة الاسلامية «٥٢».

---

(٤٨) المصدر السابق ص ١٢٣.

(٤٩) المصدر السابق ص ٦٥ - ٦٦.

(٥٠) ابن سعد: الطبقات ٥/٢٦٠.

(٥١) فان فلوتن. السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٢٩.

(٥٢) ابن عبد الحكم، سيرة ص ٩٨.

كما كتب الى عامله على خراج خراسان يقول : «... استوعب الخراج في غير ظلم، فان يكن كفافا لاعطياتهم فسبيل لك، والا فاكتب الي حتى احمل اليك الاموال فتوفر لهم اعطياتهم» «٥٣».

ثالثا: يتجه عمر الى تطبيق وتوسيع فكرة الضمان الاجتماعي ، بحيث تشمل كافة طبقات الامة رجالا ونساء واطفالا وفقراء وعاجزين ومرضى ومسافرين ، عربا وغير عرب. مسلمين وغير مسلمين. اعتقادا منه بان هذا الضمان ـ الذي شهده عصر الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم ـ أمر ضروري إذا ما أريد للعدل الاجتماعي أن يأخذ مجراه. وفي سبيل جعل هذا الضمان اكثر «عملية» والمسؤولين اكثر قدرة على الحركة والعطاء أقر عمر نظاماً لا مركزياً مفتوحاً في جمع الاموال وتوزيعها : فقد جعل كل ولاية من ولايات الدولة الاسلامية تسعى الى نوع من الاكتفاء الذاتي في جمع الضرائب وتوزيعها على احتياجاتها المحلية. وكي يعزز الخليفة هذا الاجراء جعل تبادل المعونات المالية بين الاقاليم والمركز امراً مفتوحاً لسد العجز المالي في اي من الطرفين في حالة حدوثه.

وفي الحوار التالي الذي يسوقه لنا الطبرى صورة واضحة لهذه السياسة المرنة المفتوحة « قال ابو مجلز أحد العمال لعمر: انك وضعتنا بمنقطع التراب « اي في منطقة جرداء قليلة المحصول » فاحمل الينا الأموال . فقال عمر: يا ابا مجلز قلبت الامر !! قال : يا امير المؤمنين اهو لنا ام لك ؟ قال: بل هو لكم اذا قصر خراجكم عن اعطياتكم. قال ابو مجلز: فلا انت تحمله الينا ولا نحمله اليك. وقد وضعت بعضه على بعض. قال عمر: احمله اليكم ان شاء الله ». « ٥٤ »

كما نجد هذه السياسة واضحة في رسالته الى عقبة بن زرعة الطائي عامله على اخراج خراسان حيث يقول « . . . إن كان الخراج كفافاً لاعطياتهم فسبيل ذلك . والا فاكتب الي حتى احمل اليك الاموال فتوفر لهم اعطياتهم »

---

(٥٣) الطبري ، تاريخ ٥٦٨/٦ - ٥٦٩.

(٥٤) المصدر السابق ٥٧٠/٦.

فقام عقبة باحصاء الخراج فوجده يفضل على اعطياتهم . فكتب الى عمر بذلك فأجاب: أن أقسم الفضل في اهل الحاجة. «٥٥»

وتبرز هذه السياسة مرة اخرى في كتابه الى عدي بن ارطأة الفزاري عامله على البصرة. . . اني كنت كتبت الى عمرو بن عبد انه ان يقسم ما وجد بعمان من عشور التمر والحب في فقراء اهلها ومن سقط اليها من اهل البادية. ومن اضافته اليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل. فكتب اني انه سأل عاملك —على عمان — عن ذلك الطعام والتمر فذكر انه قد باعه وحمل اليك ثمنه. فأردد الى عمرو ما كان حمل اليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه في المواضع التي امرته بها ويصرفه فيها» «٥٦» وفي العراق تلقى العمال امراً من عمر برد كافة المظالم الى اهلها فردوها. وكلف ذلك مالية العراق عسراً. فاسرع عمر يمدهم بالاموال من الشام «٥٧». ويتحدث ابن حجنة عامل عمر على صدقات بني تغلب قائلا انه يأتي الى الحي ويدعوهم باموالهم فيقبضها. ثم يدعو فقراءهم ويقسمها بينهم حتى انه ليصيب الرجل الفريضتين او الثلاث . فما انصرف اليه اغنى فقراءهم وفيهم فقير. ثم اتى الحي الاخر فاصنع بهم كذلك. فما انصرف اليه اغنى فقراءهم..»«٥٨».

وبلغ من تاكيد عمر على توزيع العطاء وهو الاساس الاول للضمان الاجتماعي آنذاك — ان الرجل لا يلغي عطاؤه بمجرد وفاته بل ينتقل سهمه الى ورثته ويوزع عليهم . «٥٩» وخصص للمعتملين ديواناً توزع بموجبه اعطياتهم عليهم. وكتب عمر الى عامله على المدينة بشان العطاء أن «من كان غائبا قريب الغيبة فاعط اهل ديوانه. ومن كان منقطع الغيبة فاعزل عطاءه الى ان يقدم أو يأتي نعيه او يوكل عندك وكالة مثبتة على حقه فاد

---

(٥٥) مصدر السابق ٦ ٥٦٩ ٥٦٩.

(٥٦) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٤٤.

(٥٧) ابن سعد ، الطبقات ٥/٢٥٢.

(٥٨) ابن الجوزي ، سيرة ص ٨٦ - ٩٧.

(٥٩) البلاذري ، فتوح البلدان ٥٦٩

عطاءه الى وكيله » « ٦٠ ». ويتحدث شاهد عيان قائلا « اخرج عمر ثلاث اعطيات لاهل المدينة في سنتين وخمسة اشهر » « ٦١ ». وقال شاهد اخر « سمعت كتاب عمر يقرأ علينا: ارفعوا كل منفوس نفرض له. وارفعوا موتاكم فانما هو ما لكم نرده عليكم ». « ٦٢ »

إتخذ الضمان الاجتماعي في دولة عمر بن عبد العزيز صوراً فريدة وعجيبة، وسعى الخليفة الى توزيع العدل على الجميع ما داموا مواطنين في دولة واحدة تحكم بعدل الله وشرعه. فنراه يكتب الى عماله ان يقيموا الخانات ومراكز الضيافة في بلادهم كي يستضيفوا المسافرين ويقروهم. ويتعهدوا دوابهم ويدلوهم اذا ما فقدوا الطريق « فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين، فان كان منقطعاً به فقووه بما يصل به الى بلده » « ٦٣ ». ونراه يوزع العطاء على جميع محاربي الدولة بالعدل دون تفريق بين عربي وغير عربي مادام الجميع يحملون راية « لا اله الا الله ». وعزل واليه على خراسان لانه منع ألوفاً من الموالي كانوا يغزون، من العطاء والرزق « ٦٤ ». ويتحدث شاهد عيان قائلا: حضرت قسمتين قسمهما عمر على جميع الناس. كلهم ساوى بينهم « ٦٥ ». وخطب عمر يوماً في الغرباء الذين قدموا دمشق قائلا: ايها الناس الحقوا ببلادكم فاني انساكم عندي واذكركم في بلادكم « ٦٦ ». ولا يكتفي عمر بهذا بل يتعهد بكفالة الدولة لابناء المقاتلين وأهاليهم. « ٦٧ ». وخصص الاعطيات للمرضى المزمنين الذين لا يرجى شفاؤهم. وساوى

---

(٦٠) ابن سعد ، الطبقات ٥/٢٥٧.

(٦١) المصدر السابق ٥/٢٥٥.

(٦٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(٦٣) الطبري ، تاريخ ٦/٥٦٧.

(٦٤) المصدر السابق ٦/٥٥٩ ، ابن سعد ، الطبقات ٥/٢٦٧

(٦٥) ابن سعد ، الطبقات ٥/٢٥٤.

(٦٦) ابن عبد الحكم ، سيرة ص ٤٢ - ٤٣.

(٦٧) الطبري ، تاريخ ٦/٥٦٩ - ٥٧٠.

كلا منهم بالرجل الصحيح. ولام احد عماله لانه اعترض على هذه المساواة. «٦٨» واتخذ داراً خاصة سماها « دار الطعام » لاطعام المساكين والفقراء وابناء السبيل. وتقدم الى المسؤولين عنها يحذرهم ان يصيبوا منها شيئاً «٦٩». وينساح عدله بعد هذا الى كل مكان حتى يبلغ الاطفال في سن الفطام. ويروي شاهد عيان كيف ان الخليفة اراه السجلات التي حددت فيها ارزاق الاطفال « ٧٠ ».

وتشدد عمر في جمع اموال الزكاة باعتبارها الضريبة الاساسية المفروضة على المسلمين. وانها حق الفقراء والمشردين والمستعبدين والمنقطعين والعاطلين... الحق الذي لا يجوز التهاون فيه ابداً. واهتم بتوزيعها على مستحقيها. باحثاً عنهم في كل مكان. موزعاً عماله في كل الاقاليم. وفي الحالات التي لم يكن هؤلاء العمال يجدون فيها الفقراء. يشترون بهذه الاموال رقاب المستعبدين ويعتقونها « ٧١ ». وقد شمل الخليفة بضمانه الاجتماعي هذا كافة الذميين. فرفع الجزية عن الرهبان في مصر. والغى الضريبة على املاك الكنيسة والاساقفة فيها « ٧٢ ». وامر بتوزيع الاموال الفائضة في بيوت الاموال على الذميين وتسليف مزارعيهم لكي يتمكنوا من تنشيط اعمالهم الزراعية « ٧٣ ». واسقط عن اهالي قبرص من الذميين الزيادة النقدية التي كان الخليفة عبد الملك قد فرضها عليهم « ٧٤ ». وكتب الى عامله على البصرة ان « انظر اهل الذمة فارفق بهم. واذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه . . . كما لو كان لك عبد فكبرت سنة. لم يكن

---

(٦٨) ابن سعد ، الطبقات ٥/٢٨١.

(٦٩) المصدر السابق ، ٥/٢٧٩.

(٧٠) الطبري ، تاريخ ٦/٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ابن سعد ، الطبقات ٥/٢٥٥.

(٧١) ابن عبد الحكم ، سيرة ص ٦٩ ، ١٢٤ - ١٢٥ ، وانظر : الطبري ، تاريخ ٦/٥٦٩ ، ٥٧٠.

(٧٢) عبد العزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ٣٣ - ٣٤.

(٧٣) ابن عبد الحكم ، سيرة ص ٦٨.

(٧٤) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٨٣.

لك بد من ان تنفق عليه حتى يموت او يعتق » ٧٥ «. وقد بلغت رعايته لاهل الذمة حداً جعلت احد كتاب النساطرة يضيف كلمات التبجيل الى اسم الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين كلما عرض لذكرهم ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز » ٧٦ «.

ويخطو الخليفة خطوات اخرى لتعزيز الضمان والتكافل بين الدولة ومواطنيها. ويصل حداً عجيباً في رسم وتنفيذ معالم العدل الاجتماعي حينما يقرر التزام الدولة بتطمين الحاجات الاساسية للمواطن. حداً عجيباً بلغ فيه - في ذلك الزمن السحيق ! — كل ما رسمه وحلم به ماركس. وكل ما عملت الشيوعية على تنفيذه في عالم الواقع. فبعد رسالة بعث بها عمر الى احد عماله يامره بالقضاء عن المدينين ! ! تلقى جواباً من العامل يقول فيه: انا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس. وله الاثاث في بيته. فكتب عمر : لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى اليه راسه. وخادم يكفيه مهنته. وفرس يجاهد عليه عدوه. واثاث في بيته. ومع ذلك فهو غارم. فاقضوا عنه ما يمكنه من الدين »٧٧«. وكتب الى عامله على الكوفة يقول » كتبت تذكر انه قد اجتمعت عندك اموال بعد اعطية الجند فاعط منهم من كان عليه دين في غير فساد. او تزوج فلم يقدر على نقد «. » ٧٨ « وقد خصص عمر مبلغا في بيت المال لمساعدة المدينين والقضاء عنهم. » ٧٩ « ومن جهة اخرى امر عماله ان يسددوا ديون الاشخاص الذين يموتون وهم مدينون رغبة منه في ضمان حق الدائنين » ٨٠ «. وفضلا عن ذلك امر بتعويض من يلحق به ضرر لا طاقة له به. فقد جاءه مرة احد المزارعين واوضح له كيف انه زرع زرعاً وكيف ان

---

(٧٥) ابن سعد . الطبقات ٥/٢٨٠.

(٧٦) توماس ارنولد . الدعوة الى الاسلام ص ٤٦٦.

(٧٧) ابن عبد الحكم . سيرة ص ١٦٤.

(٧٨) المصدر السابق ص ٦٨.

(٧٩) ابن سعد . الطبقات ٥/٢٥١.

(٨٠) ابن عبد الحكم . سيرة ص ٦٨.

بعض جند الشام الحفوا الخراب به. فامر عمر له بعشرة الاف درهم «٨١».

ان التضامن الاجتماعي لدى عمر لا يقتصر فقط على الجوانب المعاشية والحاجات الضرورية بل يمتد ليعين المسلمين على اداء شعائر الله ومطاردة الظلم اينما وجد. والامر بالمعروف والنهي عن المنكر. فيكتب الى احد عماله ان : « انظر من اراد من الذرية ان يحج فعجل له مائة يحج بها » «٨٢».

ويكتب الى عامله على اليمن: ان اقعد على طريق الحاج قوما ترضاهم. وترضى دينهم وامانتهم. يقوون الضعيف ويعينون الفقير. «٨٣»

ويكتب الى اهل المواسم «اما بعد: فايما رجل قدم الينا في رد مظلمة او امر يصلح الله به خاصة او عامة من امر الدين. فله ما بين مائة دينار الى ثلاثمائة. بقدر ما يرى الحسبة وبعد السفر. لعل الله يحيى به حقا او يميت باطلا او ينفتح به من وراء حيرا» «٨٤». وتلك هي النقمة التي ركز عليها عمر راية العدل الاجتماعي.

وقد تميز عمر وهو ينشر جناحي العدل والمساواة على ابناء الامة. تميز. بحيوية ثاقبة وحس عميق بالعدل الاجتماعي. كانا ينبأ به دائما عن مواطن الزلل والشبهات. حتى مرة يسارق. وشكا اليه هذا الحاجة. فعذره عمر ومنحه مبلغا من المال «٨٥». عين موقف جده العظيم من العصبة التي سرقت ناقة نسيبها. يومها وقف عمر بن الخطاب منددا بالسيد معلما اياه ان ظلمه هو الذي قاد خدامه الى السرقة. ويوما كتب الحجاب الى عمر بن عبد العزيز يطلبون كسوة لبيت الله الحرام. اسوة بما كان يفعله من سبقه. فكتب اليهم: اني رايت ان اجعل ذلك في اكباد جائعة فانه اولى بذلك من البيت «٨٦».

---

(٨١) [illegible]

(٨٢) [illegible]

(٨٣) [illegible]

(٨٤) المصدر السابق ص ١٣١.

(٨٥) ابن الجوزي، سيرة عمر ص ٩٠.

(٨٦) المصدر السابق ص ٩٠.

ترى هل الحق عمر بسياسته السخية هذه على الجماهير. اذى ببيت المال. او اصاب خزينة الدولة بعجز مريع وكسر لا يجبر؟ ام انه اعاد الامور المالية الى ما يجب ان تكون عليه. واحدث توازنا مكينا بين موارد الدولة ومصارفها؟ المستشرقون -بدافع من علمانيتهم - ليس بمستطاعهم ان يتصوروا ان عالم الاقتصاد يمكن ان تحكمه القيم والمثاليات. وألا تعرض للتصدع والانهيار. انهم يعتقدون ان تضحية كهذه بمصالح الخزينة المركزية لصالح جماهير الامة. والغاء كهذا لكثير من الضرائب التي تشكل موارد كبيرة تصب في بيت المال . من اجل توسيع نطاق الدعوة ورفع شعار الهداية لا الجباية. لا يمكن الا ان ينتج اختلالا في السياسة المالية. وتقلصا مريعا في موارد الدولة وعجزاً تاما ازاء ما يستجد من حاجات .

ولنستمع الى احد المستشرقين يعبر بوضوح عن وجهة النظر هذه « لا ريب في ان سياسة عمر بن عبد العزيز لم توقظ الا امالا لم تستطع الحكومة تحقيقها فقد كانت تحتاج تتطلب علاجا اخر غير تلك السياسة التي سار عليها عمر بن الخطاب. ففي العراق انضبت الاعطيات السنوية بيت المال بعد ان تأثرت موارده تأثرا محسوسا من جراء الغاء الجزية في خراسان. وهكذا اعقبت تلك الفوضى في الشؤون المالية بعد موت عمر. سياسة خراجية اقصى ما تكون جوراً وعسفاً »[٨٧]. ويقول فان فلوتن في مكان اخر معززا رأيه « لم تكن غلطة عمر بن عبد العزيز سوى رجعيته ومحافظته الدينية وتمسكه الشديد بالنظام الذي سنه عمر بن الخطاب الذي كان يقتفي أثره لما كان يكنه له في اعماق نفسه من الاحترام والاكبار. والذي لم يكن الا صورة صادقة منه رغم ما كانت تتطلبه الحالة من العدول عن ذلك النظام عدولا تاماً »[٨٨].

وهنالك الكثير الكثير مما قاله المستشرقون تعليقا على سياسة عمر المالية بالذات. ليتوخوا الحذر والباحثين ان التلاؤما بين الواقع والقيم لا يمكن ان يحدث. وان

---

(٨٧) فان فلوتن . السيطرة العربية ص ٥٨.

(٨٨) مصادر التاريخ ص ٥٩.

تكاملا بين برامج الاسلام ومصلحة دولته المالية يستحيل ان ينوجد. ونحن نكتفي —الان— بهذين الشاهدين من فان فلوتن. لان كل ما قاله رفاقه ليس الا صدى لهذا الهراء. والحكم بالظن. و التخمين. وعدم استكمال الوقائع التاريخية... وهل يغني الظن من الحق شيئا؟ لذا فاننا سننتقل بسرعة الى جانب «الحق» نفسه الذي لا يقوم بحث تاريخي الا به. ونلقي نظرة —اوسع مدى— على وقائع التاريخ لنرى بوضوح زيف ادعاءات كهذه لا رصيد لها من وقائع التاريخ .

صحيح ان عمر بن عبد العزيز رفع شعار الهداية لا الجباية. وسد كثيرا من موارد الدولة غير المشروعة. وانفق بسخاء على جماهير المسلمين. الا انه لم يرتجل ابدا خطوة خطاها في يوم من الايام. انه —كخليفة مسؤول عن دولة فضلا عن كونه مسؤولا عن امة— كان يحسب حسابا لكل خطوة يخطوها. ويضع الضمانات والمسهدات لكل سياسة يعتزم تنفيذها. انه كخليفة راشد ذكي. حاد البصيرة. يعرف يقينا ان ارتجالا كهذا سوف يعرض مصالح الدولة. بل وجودها ذاته للخطر. وانه لا بد لدرء هذه الاخطار من ايجاد برنامج عملي يضمن للدولة بقاءها واستمرارها ونموها وقابليتها على تأدية واجباتها تجاه الامة وتجاه العالم كله. انه كاي خليفة راشد. كان يضع امام الامة ومسؤوليها الافاق التي يجب ان يتحركوا اليها . لان الانسان مشدود دائما الى واقعه الراهن. والارض التي ولد عليها. ولا بد لتحريكه الى امام ان توضع نصب عينيه وفي مدى رؤياه معالم هذه الافاق... ولكن هذا لم يكن يعني ابدا. بالنسبة لاي خليفة راشد نوعا من الاتكالية او الزهد الاداري الذي يحيل الدولة الى جهاز عاطل ينتظر صدقات المحسنين ... هذه هي المصورة. المشوهة. القلقة. التي يريد عدد من الباحثين ان يعرضوها عن الخلافة الراشدة ان كلا من هؤلاء الراشدين كان يتمتع بحسن نية . وتقوى شديدة. ورغبة عميقة في نشر الاسلام وخدمة جماهيره. ولكنهم كانوا يفتقدون البصيرة والذكاء والحدس الاداري الذي يمكنهم من احداث توازن بين مصلحة الدولة ومصلحة الشريعة ومصلحة الامة... وهذه الترهات لا رصيد لها من الواقع .لان كل

خليفة من هؤلاء، كان يمتلك الى جانب تقواه وورعه وحرصه: ذكاء نادرا وحدسا دقيقا وواقعية ايجابية، وبصيرة نافذة. يخرج عن طريقها بالدولة من اشد الازمات ظلمة، واكثر المشاكل تعقيدا... والا لما كان عمر بن الخطاب قد أرسى قواعد اروع جهاز اداري في قلب صحراء لم تعرف عن الادارة والاجهزة المركزية من قبل الا لماماً ... ولما كان ابو بكر الصديق قد أرسى دعائم وحدة من مئات القبائل التي كانت تشدها تقاليد قرون طويلة الى الانفصال والتمزق... ولما استطاع عثمان من الوقوف ازاء اشد المخاطر الدولية عنفا، حيث تعرضت الدولة الاسلامية لاكبر حركتي تمرد من الفرس والروم لضرب منجزات الخلفاء السابقين... وها هو عمر بن عبد العزيز يتخذ من اجراءات « الموازنة » ما يدل على هذا، وينفي ترهات اولئك الباحثين ..

اولا: فتح عمر باب التجارة الحرة في البر والبحر واعلن : « اما البحر فانا نرى سبيله سبيل البر « الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بامره ولتبتغوا من فضله » فاذن فيه ان يتجر فيه من شاء. وارى ان لا نحول بين احد من الناس وبينه. فان البر والبحر لله جميعا سخرها لعباده، يبتغون فيهما من فضله. فكيف نحول بين عباد الله وبين معائشهم؟ » «٨٩» .

فعن طريق حرية التجارة. وفي المرحلة التاريخية التي كان العالم يجتازها، أقر عمر اسلوبا حيويا لتنمية الثروة والدخل القومي. ورفع مستوى المعيشة. وتهيئة شتى صنوف البضائع بارخص الاسعار. وعلى الرغم من ان عمر الغى ضرائب المكوس- التي كان يمكن ان تنمو عن طريق حرية التجارة- الا ان الدولة كانت تعتمد على طريق اخر لجني ثمار هذه السياسة: الزكاة. تلك الضريبة التي لم يتهاون عمر في جبايتها وتنظيمها وتوزيعها وفق ما امر الله ورسوله. وجاء في احدى تاكيداته عنها «...ان الله فرضها وسمى اهلها ... فتؤخذ. لا يحابى بها قريب ولا يمنعها اهلها. ثم تجعل الى مرضيين من اهل الاسلام.

---

(٨٩) ابن عبد الحكم ، سيرة ص ٩٣ - ٩٤ ، ٩٨

فيجعلونها حيث امرهم الله، يحملهم الامام من ذلك على ما حمل ... »«٩٠»

ومقدار ٢.٥٪ من اصل راس المال وارباحه على السواء يشكل دخلا محترما في مجتمع يسوده النشاط التجاري والتنمية المستمرة للثروة. ولم تكن ضريبة الزكاة هذه تجبى ارتجالا، وانما كان لها عمالها واجهزتها الدقيقة. ومن هنا يمكن ان نتصور مقدار الدخل الذي ستجنيه الدولة من هذا المورد، ونتوقع النتيجة المحتمة لرفع مستوى الطبقات الفقيرة ومنحها قدرة شرائية تؤثر بدورها على الدورة العامة لنمو الدخل القومي في الدولة الاسلامية. وسنرى فيما بعد كيف سيؤدي هذا الى نشر الرفاهية. وارتفاع مستوى المعيشة. وتضاؤل الفقراء في انحاء واسعة من الدولة.

ثانيا: عمل عمر على اتباع سياسة زراعية سليمة، فاشار على عماله بان الاهتمام بالاصلاح والاعمار واحياء الاراضي واقامة المشاريع يجب ان يسبق التاكيد على الجباية. يتضح هذا في عدد من كتبه منها ذلك الذي ارسله الى عبد الحميد واليه على الكوفة حيث يقول «...لا تحمل خرابا على عامر. ولا عامرا على خراب. انظر الخراب فخذ منه ما اطاق واصلحه حتى يعمر. ولا يؤخذ من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لاهل الارض» «٩١». كما يتضح في كتاب اخر الى أحد عماله يأمره ان يعتمد على ما لديه من فائض نقدي. في تقديم سلف مالية لمزارعي اهل الذمة كي يتقووا بها على اعمالهم الزراعية.«٩٢» وقد كتب اليه عامله على البصرة يعرض عليه رغبة اهاليها في حفر نهر لهم. فاذن له عمر. ومن ثم قام العامل بحفر النهر المعروف باسمه «نهر عدي» «٩٣». كما امر بني امية ان يقيموا في ضياعهم ويعملوا على اصلاحها «٩٤».

وقد سبق وان رأينا كيف انه عزز سياسته هذه باعطاء ضمانات للمزارعين

---

(٩٠) المصدر السابق ص ٩٦ - ٩٧، وانظر: ابن سعد، الطبقات ٥/٢٧٧.

(٩١) الطبري، تاريخ ٦/٥٦٩.

(٩٢) ابن عبد الحكم، سيرة ص ٦٨ وهوامشه.

(٩٣) البلاذري، فتوح البلدان ص ٤٥٤.

(٩٤) ابن عبد الحكم، سيرة ص ١٦٤ - ١٦٥.

وعدم ارهاقهم بضرائب خراجية ثابته على اعناقهم سواء كان المحصول جيدا ام رديئا. ومن السهولة ان نتنبأ بنتائج سياسة كهذه تؤكد على تنشيط الزراعة واستغلال الطاقات الانتاجية، وتطمين المزارعين.

فلا ريب ان ضريبة الخراج النامية هذه كانت تشكل المورد الرئيس الاخر للدولة الى جانب الزكاة، خاصة بعد ان اوقف عمر الغزو وما يعقبه من غنائم. وبعد ان الغى ضريبة الجزية عن اعناق المسلمين من غير العرب. واولئك الذين يعلنون اسلامهم من اهل الذمة. ولذا فان عمر، بما له من بصيرة نافذة، اخذ يلقي ثقلا كبيراً على ضريبة الخراج ولا يتهاون باي شكل من الاشكال ازاء اولئك الذين تخلوا عن دفع هذه الضريبة من بني امية او المقربين اليهم واعلن: ان ارض الخراج هي في الاصل ملك مشترك بين المسلمين، ولكنها تركت بايدي المغلوبين لقاء ايجار يدفعونه للامة الاسلامية هو الخراج. ولذلك فلا يجوز لاي شخص ابطال هذا الايجار. فاذا اصبحت الارض الخراجية في ملك مسلم فعليه ان يؤدي عنها حق الامة وهو الخراج. واذا اسلم ذمي اعفي من الجزية وله امواله المنقولة، اما ارضه فاما ان يدفع عنها الخراج او يتركها لغيره فيدفع زارعها الجديد الخراج عنها. اما هو فيستطيع الذهاب أنى شاء «٩٥». وقد اعتبر عمر سنة ١٠٠ هجرية نقطة البدء في تطبيق قراره. وعندما لاحظ رغبة العرب في الاستحواذ على الاراضي الخصبة، مما يعني توسع الملكية الكبيرة على حساب الملكيات الصغيرة. وما يثيره ذلك من شكوى ونقمة، حاول الحد من هذا الاتجاه تلافياً لما ينجم عنه من اضطراب. وكره شراء الارض الخراجية وحاول ان يوقف بيعها «٩٦».

ويقول فلهاوزن في هذا الصدد: نستطيع ان نصدق ان عمر بدأ بمقاومة ما قد وقع في عهد من تقدمه من الخلفاء من تمزيق صوافي الدولة «اي اراضيها

---

(٩٥) عبد العزيز الدوري، مقدمة ص ٣٣ - ٣٤، وانظر: ابن عبد الحكم، سيرة ص ٩٤، ٩٩.

(٩٦) الدوري، مقدمة ص ٣٣ - ٣٤. وانظر: ابن عبد الحكم، سيرة ص ٩٩.

التابعة لها » وانتقاص الممتلكات الشائعة للمسلمين وذلك بان منع بيع ارض الخراج. اما ان يكون عمر قد حافظ على جملة ارض الصوافي ولم يهب شيئاً منها لاحد فيمكن ان نفترضه مطمئنين «٩٧». وفي الاندلس قام واليها السمح بن مالك الخولاني باتباع سياسة تتمشى وعدالة عمر وبتكليف منه. وذلك بان قام باعادة تنظيم اراضيها بقصد فرض الخراج. وكان العرب هناك قد احتفظوا بالضياع والعقار المنقول ونحوه. مما لم يكن قد قسم من قبل فقسمه السمح بالقرعة على الاصحاب بعد ان ضم جزء من كل شيء ثابت ومنقول الى بيت المال «٩٨».

وهكذا تمكن عمر ـ بتأكيده على الضريبة الخراجية وحمايته لاراضي الدولة من التفكك والضياع ـ تمكن من احداث توازن مالي منتظم دعا فلها وزن الى القول بأنه: لما كانت الارض المزروعة هي اهم ما يدفع عنه الخراج فان اسقاط الجزية عن الداخلين في الاسلام لم يكن في الحقيقة ـ من جانب بيت المال ـ تضحية كبيرة. وهكذا امكن ان يفي بيت المال بحاجة الدولة الاسلامية من غير مشقة «٩٩». هذا فضلا عن ان عمر احدث توازنا منطقيا في مسالة الجزية حيث جعل الحد الادنى للقادرين على دفعها عشرة دنانير» وهذا ما قضى به ابو حنيفة» «١٠٠» ازاء كفالة الدولة للضعفاء منهم. ورفع الجزية عمن اسلم. هذا الى تأكيد عمر على الخمس والفيء مما يشكل موردا مهما من موارد الخزينة «١٠١».

ثالثاً: كما ان عمر تمكن من توفير مبالغ طائلة لمالية الدولة. كانت الحكومات السابقة تستنفذها في القضاء على الفتن والمنازعات الداخلية والحروب. فان اية حكومة سابقة كانت ـ على سبيل المثال ـ ستشهر السيف بوجه ثورة الخوارج

---

(٩٧) الدولة العربية وسقوطها ص ٢٨١.

(٩٨) المصدر السابق ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ وهوامشه .

(٩٩) المصدر السابق ص ٢٧٢.

(١٠٠) أ.س. ترتون ، اهل الذمة في الاسلام ص ٢٦٢.

(١٠١) ابن عبد الحكم ، سيرة ص ٩٦ - ٩٧.

التي قادها بسطام اليشكري – شوذب – وعلى الرغم من انها كانت ستضمن النصر على الاغلب لتفوق قوتها على قوة الخوارج، الا ان ذلك كان سيكلفها الكثير الكثير من نفقات الحرب: ميرة وعتاداً ووسائل نقل ورجالا. . . ولكن عمر بلجوئه الى الاسلوب السلمي تجاه الخوارج وفر على الدولة ولاشك مبالغ كبيرة . . وهكذا بالنسبة لكل ما كان يمكن ان يحدث من ثورات تتطلب حلا حربياً وبالتالي مصاريف بلهظة لولا تمكن عمر. بسياسته وبعد نظره، من توحيد الامة الاسلامية بمختلف كتلها واحزابها وابعادها عن استنفاد طاقاتها بالصراع الداخلي. واغلب الظن ان ايقاف مصرف ضخم كهذا لا يقل في قيمته عن المورد الذي كانت الدولة تستمد منه من جراء عمليات الفتح والتوسع . وهكذا فاننا نجد ظاهرة التوازن والمقابلة المادية واضحة في كل ناحية من نواحي السياسة المالية التي اختطها عمر بن عبد العزيز.

ولكن الاهم من هذا وذاك هو ان عمر اوقف بشكل جاد اعمال الابتزاز التي كان يتعرض لها بيت مال المسلمين ابتداء من الخليفة وحتى صغار الجباة. وبين هذين معظم موظفي الدولة وعمالها. وغدا بيت المال الان. سواء في المركز ام في الولايات. محاطاً بايد امينة تحرسه وتسهر عليه. وتقطع الايدي التي تحاول ان تمتد اليه لتختلس منه بليل.

ان هذا الحرص وهذه الحماية تفسر لنا. فضلا عن العوامل الاخرى. ذلك التوازن العجيب بين موارد الدولة ومصارفها الكثيرة . . . ولا مجال هنا لاستعادة صور ذلك الحرص العجيب على اموال الامة. والمراقبة الدقيقة لتصرفات العمال. اذ يمكن متابعتها في الصفحات السالفة. ونكتفي بايراد الاشارة التي قدمها فلها وزن في كتابه عن الدولة العربية حيث يقول «عنى عمر بالحيلولة بين الولاة وبين ان يكون همهم الاول من مناصبهم جمع الاموال لانفسهم. والاغلب ان ذلك عوض النفقات التي اقتضتها اصلاحاته ضعفين» «١٠٢» ولم يكتف عمر باحاطة بيت المال بهذه

---

(١٠٢) الدولة العربية وسقوطها ص ٢٩٦.

الحماية . بل اعاد تنظيمه فنياً بشكل يتيح للموارد ان تنأى عن الفوضى والاضطراب والتداخل، فجعل بيت مال خاص، وعلى حدة: لكل من الخمس والصدقة والفيء «١٠٣».

رابعاً : ثم ان عمر اوجد بوقفه للفتن والمنازعات والعصبيات القبلية والحروب . واجتثاثه لكل انواع الظلم من جذورها، مناخاً رائعاً من الامن والاستقرار هيأ للمجتمع الاسلامي بكافة فئاته العمل المستمر المطمئن المثمر النشيط. معتقدين ان نشاطهم هذا سوف لن تعصف به رياح الفتن والمنازعات . ومضاعفين نشاطهم اعتمادا على حماية دولة قوية متمكنة، وخليفة يقظ، يتتبع ببصيرة نافذة. كل صغيرة وكبيرة يمكن ان تلحق بنشاط احد من المواطنين وحقه وامنه. اي اذى او خوف من المستقبل . .

ان عدلا كهذا وأمناً واستقراراً ينشران جناحهما على كل أقاليم الدولة لا بد ان تؤتي اكلها باذن الله على الجميع: امة وحكومة ودولة ... فيزداد النشاط. ويتفجر الوازع الذاتي بالمعطيات. وينمو الدخل القومي. وتجد اجهزة الدولة مواردها الكافية . كي تعود بدورها لتوزعها على نقاط الضعف في جسد الامة. وترفع مستواها الى الافق الحر الكريم الذي يرجوه لكل المواطنين خليفة راشد يرى فيهم جسدا واحدا. اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

* * *

ولا يمضي سوى وقت قصير على تطبيق هذا البرنامج الاقتصادي المالي العادل المتزن. حتى يجد المسلمون انفسهم في رفاهية تعم الجميع ؛ وتجد الدولة ،ماليتها قد استندت الى موارد نامية متطورة مضمونة.« واطمأن الناس في كل رقعة من رقع هذه المملكة الواسعة. حتى عز وجود من يستحق الزكاة ويقبلها. واصبحت هذه مشكلة للاغنياء واصحاب الاموال تطلب حلا سريعا» «١٠٤».

---

(١٠٣) ابن سعد . الطبقات ٥/٢٩٥.

ويحدثنا يحيى بن سعيد عامل الخليفة على صدقات «زكاة» افريقية فيقول «بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجدبهافقيرا، ولم نجدمن ياخذها مني. فقد اغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقابا فاعتقتهم...» «١٠٥». ويقول احد احفاد زيد بن الخطاب «انما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا، فذلك ثلاثون شهرا. فما مات حتى جعل الرجل ياتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء. فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم. فما يجده فيرجع بماله. قد اغنى عمر بن عبد العزيز الناس» «١٠٦»

وتتوالى الشهادات عن العدل والكفاية والرفاهية التي عمت الجميع... شهادات من جهات شتى طرحها موظفون من عصر عمر. وشهود عيانومواطنون. ودونها رواة ومؤرخون ثقاة... واكدها الباحثون في شتى العصور... ولنستعرض بعضها فحسب. فربما فيه الكفاية للرد على دوزي وفان فلوتن ومولر وغيرهم من رواد المدرسة العلمانية في التاريخ. اولئك الذين يرون الدين والتقدم على طرفي نقيض. ولنستمع الى ما يقوله الشهود:

ابن كثير: كان منادي عمر ينادي في كل يوم: اين الغارمون؟ أين الناكحون؟ اين اليتامى؟ حتى اغنى كلا من هؤلاء «١٠٧». ولي عمر سنتين ونصفا فملأ الارض عدلا. وفاض المال حتى كان الرجل يهمه لمن يعطي صدقته؟ «١٠٨».

السيوطي: قال عمر بن اسيد: والله ما مات عمر حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون .. «١٠٩».

---

(١٠٤) الندوي. رجال الفكر ص ٩٠.

(١٠٥) ابن عبد الحكم. سيرة ص ٦٩.

(١٠٦) المصدر السابق ص ١٢٤ - ١٢٥.

(١٠٧) البداية والنهاية ٩/٢٠٠.

(١٠٨) المصدر السابق، ٩/٢٣٩.

(١٠٩) تاريخ الخلفاء ص ١٥٦.

ابن سعد: اخرج عمر ثلاثة اعطيات لاهل المدينة في سنتين وخمسة اشهر. «١١٠» وقال متحدث من الكوفة: كل يوم كان يجيء خير من عمر «١١١» .

ابن الجوزي: قدم على عمر بعض اهل المدينة فجعل يسال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ فاجابوه: قاموا منه يا امير المؤمنين. واغناهم الله. وكان من اولئك المساكين من يبيع الحطب للمسافرين. فالتمس ذلك منهم فيما بعد فقالوا: قد اغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر «١١٢» .

وكتب اليه بعض ولاته ان الناس لما سمعوا بولايتك تسارعوا الى اداء زكاة الفطر فقد اجتمع من ذلك شيء كثير .. ولم أحب ان احدث فيها شيئا حتى تكتب الي برأيك . فاجابه: ما حبسك اياها الى اليوم؟ اخرجها حين تنظر في كتابي «١١٣». وكتب عامل صدقاته « ابن جحدم » انه كان يجمع الزكاة من احياء تغلب ثم يقسمها على فقرائهم حتى ليصيب الرجل الفريضتين او الثلاث . فما يفارق الحي وفيهم فقير «١١٤».

ابن عبد الحكم: كان رسول عمر يقدم البصرة فاذا سمع به تلقاه الناس. فليس يقدم الا بزيادة في عطاء او قسم او خير يأمر به او شر ينهى عنه. فلا يزال الناس يشيعونه حتى يدخل المسجد فيقرا ذلك الكتاب . حتى قدم بريد نعيه ، فلقيه الناس كما يلقونه فاذا هو باك يخبر بموته ، فبكى الناس لبكائه لعظيم ما نزل بهم، ولعظيم مصيبتهم «١١٥» .

---

(١١٠) الطبقات ٥/٢٥٥.

(١١١) المصدر السابق ٥/٢٧٦.

(١١٢) سيرة ص ٧٦ - ٧٧.

(١١٣) المصدر السابق : ص ٨٥ - ٨٦.

(١١٤) المصدر السابق : ٨٦ - ٨٧.

(١١٥) سيرة ص ٦٧.

وكتب عمر الى عامله على الكوفة : كتبت تذكر انه قد اجتمعت عندك اموال بعد اعطية الجند فاعط منهم من كان عليه دين في غير فساد، او تزوج فلم يقدر على نقد فكتب اليه العامل: انه قد بقي عندنا بعد ذلك. فأجاب عمر ان قو اهل الذمة فانا لا نريد جزيتهم لسنة ولا لسنتين «١١٦».

وكتب الى عدي بن ارطأة عامله على البصرة: انه قد اصاب الناس من الخير خير حتى لقد خشيت ان يبطروا. فاجاب عمر : مر من قبلك ان يحمدوا الله ! «١١٧».

وخطب عمر يوما قائلا «وقد اعطاني من ذلك، وله الحمدفي عاجل الدنيا. وجماعة من الشمل وصلاح ذات البين . وسعة في الرزق. ونصر على الاعداء، وكفاية حسنة، حتى اغنى لاهل كل ذي جانب من المسلمين جانبهم. ووسع عليهم الرزق. ولا يرى اهل كل ناحية الا انهم افضلوا قسما مما بسط الله لهم من رزقه ونعمه. من اهل الناحية الاخرى «١١٨».

والتقى يوما بمسافر من اهل المدينة فساله عن حالها فاجاب : اني تركتها والغني بها موفور والعائل مجبور «١١٩» .

عبد العزيز الدوري : نجح عمر بن عبدالعزيزفي اجراءاتهلانه وضعها في اطار المفاهيم الاسلامية. وقد ثبتت الخطوط التي رسمها اسس تحديد الضرائب ومنحت مفاهيمها « ١٢٠ » .

فلها وزن: اما مايزعمه البعض « مثل موللر » من انالاموال الدولة في عهده قد تلاشت كما يزول الشيء باشارة سحرية. وان ما يتحصل من الخراج

---

(١١٦) المصدر السابق : ص ٦٨.

(١١٧) المصدر السابق : ص ٦٩.

(١١٨) المصدر السابق : ص ٧٧.

(١١٩) المصدر السابق : ص ١٣١.

(١٢٠) مقدمة ص ٣٣ - ٣٤.

قد انحط دفعة واحدة. فاني لا اريد هنا ان اتعرض للكلام. فيما اذا كان ذلك الزعم اكثر من ان يكون نتيجة خطأ. ولكنه على كل حال زعم لا يمكن ان يكون صحيحا بوجه من الوجوه. وذلك ان الاحوال المالية كانت سيئة في الايام المضطربة لعهد عبد الملك والحجاج. اما في عهد عمر فقد عادت الى حالة الصحة «١٢١».

* * * *

ولنرجع — معا — صفحات قليلة الى الوراء وننظر الى تلك الضمانات المالية. واسعة النطاق، التي كفل بها عمر فئات عديدة من ابناء الامة الاسلامية. الى الاموال الكثيرة التي امر عماله ان ينفقوها لرفع المستوى المعاشي لطبقات الامة. والى المبالغ التي خصصت لمشاريع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والى العناية والحرص على ان تبلغ كفالة الدولة كل المسلمين عربا وغير عرب. وكل المواطنين مسلمين وغير مسلمين. وكل العاطلين والمرضى والمعتقلين والمسافرين والمدينين والفقراء وابناء السبيل وطالبي الزواج وحتى الاطفال . . . ثم لنطلع قبل ذلك على رسالتي عمر لابي مجلز وعقبة بن زرعة الطائي اللتين يقرر فيهما انه سيمدهما بالمبالغ اللازمة من ميزانية الدولة اذا لم يكف خراج اقاليمهما لتغطية المصاريف المحلية . . . ترى هل ان هذه التكاليف المالية التي القاها عمر على عبء الميزانية المركزية. وهذه المشاريع الواسعة التي بدأ بتنفيذها . كانت ستتحقق لو كان هنالك اي عجز تعانيه ميزانية الدولة؟ الا يدل هذا التوسع من قبل الخليفة الحصيف على انه يعتمد على ميزانية مستقرة، غنية، مضمونة الموارد. . . بحيث يتقدم الى امته وعماله — بثقة ويقين — بكل هذه الانواع الشاملة من الضمانات الاجتماعية؟ ثم كيف يمكن تفسير تناقص خراج السواد — على سبيل المثال — في عهد الحجاج الى ٤٠ مليون درهم . بينما كانت قد بلغت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٠٠ مليون ؟ «١٢٢» ومن ذا يقول ان عمر بن عبد العزيز لم ينتهج نهج ابن

---

(١٢١) الدولة العربية وسقوطها ص ٢٩٦.

(١٢٢) البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٣٢.

الخطاب ؟ كان يجب وفق منطق فان فلوتن ورفاقه ان تفيض خزائن الحجاج ذهبا وان تخلو خزائن العمرين. وتكنس. ويرش عليها الماء . . . فما هو السر في حدوث هذه النتيجة المعاكسة. سواء في عهد الخطاب ام في عهد حفيده . ان لم يكن العدل والتنظيم والايجابية؟ ثم اليس من الكذب الذي يخجل له الاميون – فضلاعن العلماء المؤرخين -- ان ياتي مستشرق متخصص مثل فان فلوتن فيلقي نظرة جانبية مبتورة ومتعسفة على بعض وقائع التاريخ ويعلن بان سياسة عمر المالية هذه لم تكن سوى « غلطة » ارتكبها بدافع من « رجعيته ومحافظته الدينية وتمسكه الشديد بالنظام الذي سنه عمر بن الخطاب؟ »

« وان الحال كانت تتطلب علاجا آخر غير تلك السياسة التي سار عليها عمر بن الخطاب » ؟

ليس لهذا الكذب . وهذا الالتواء في فحص النصوص التاريخية الا الدافع الذي عودنا عليه معظم المستشرقين. وهو التعصب ضد الاسلام متمثلا بمبادئه وقادته ودوله وحضارته. والعمل الدائب – على حساب التاريخ والحقيقة – في صرف اذهان المسلمين عن اية دعوة ترى في شد الوقائع واليوميات الى القيم والاهداف التي طرحها القرآن والسنة. استجابة للفشل ذاته الذي شهده عصر ابن عبد العزيز ! !

وليس لنا اذن ان نصب اللوم على فان فلوتن وحده وهناك كثيرون غيره ساروا على ذات المنهج في معالجة قضايا التاريخ الاسلامي . فوقعوا في اخطاء ما انزل الله بها من سلطان. حتى لقد استفزت هذه الاخطاء احد المستشرقين المحايدين انفسهم . فانبرى لاعادة تقييم منهج عمر الاقتصادي ووضع الامور في اماكنها وتفنيد هذه الاخطاء . من اجل ذلك نحب ان نختتم هذا البحث بحوار شيق بين المستشرقين انفسهم حول منجزات عمر الاقتصادية لكي تستكمل الصورة كافة جوانبها ولا يبقى هنالك ظل لايجري خلفه ضوء .

يقول فلها وزن: كان اصلاح الناحية المالية اول ما اتجهت اليه همة عمر.

ولكن ليس من السهل ان نتبين بوضوح نوع اصلاحاته في ميدان نظام الخراج والاراء التي جاء بها في هذا الشان «الفريد فون كريمر» وتابعه «موللر» مشوبة باخطاء حقيقية «١٢٣».

ماذا يقول كريمر وأوجست موللر ؟ لنقرأ معا : « كان ذهن عمر بحكم سلطان الدين عليه بعيدا عن كل ادراك لما تقتضيه الحكمة السياسية. وانه وان كان لايمكن النزاع في ان بعض ما وضعه من نظم قد ادى الى تقوية روح الاسلام . في ذاته تقوية كبيرة . فان كل ما فعله يكاد يكون قد ساعد في الجملة على افساد نظام الدولة من اساسه . بعد ان كانت قد اصبحت دولة دنيوية. والرومان وهم أكفأ الشعوب التي عرفها التاريخ في مسائل السياسة الكبيرة. انما قرروا المبدأ الذي قرروه عن علم وهو انه لا دولة يمكن ان تعيش الا بالوسائل التي أدت الى قيامها. اما عمر فقد انصرف عن الأصول المتمشية مع الواقع والتي وضعها خلفاء الامويين بعد عصر معاوية. واراد ان يستعيض عنها بتحقيق مبادئ مثالية استمدها من القرآن والحديث . حتى ولو كان هذا العمل الخليق بالثناء لا يمكن تنفيذه الاعلى اساس علم غير كامل بالظروف الواقعة ! ولكن عمر وهو الخليفة الورع . كان متاثرا بمبادئ حاشيته الدينية الى حد انه لم يقم حتى بمحاولة اصطناع شيئ من العقل عند تطبيق ما في القرآن من مبادئ كبرى عن احوال هذه الدنيا الناقصة. وكان تفكيره الساذج يقول له ان الله يريد كذا وكذا. وانه اذا كان الله يريد ذلك فمن الممكن تنفيذه» «١٢٤».

وبعد ان يستعرض موللر نقلا عن كريمر اجراءات عمر بشأن الجزية او الخراج والاعطيات مما ألحق ببيت المال خسائر فادحة لا تعوض !! يقول «... والى جانب كل هذه الاجراءات التي أضرت ببيت المال اكبر الضرر جاء أمر آخر أصدره عمر . وقد اوحى به اليه احساس انساني بالعدالة. لكن لم يكن

---

(١٢٣) الدولة العربية وسقوطها ص ٢٦٣.

(١٢٤) اوجست موللر . تاريخ الاسلام في الشرق والغرب . ١/٤٣٩ فما بعدها نقلا عن كتاب فون كريمر . تاريخ حضارة المشرق ١/١٧٤ فما بعدها عن كتاب فنهاوزن المذكور هامش ١ ص ٢٦٣ فما بعدها .

موفقا من ناحية عملية . وهو يقضي برد جميع الاموال التي ابتزت من الرعايا، ظلما، الى اصحابها. ولا نعرف ان كان هذا قد وقع مقصورا على احوال فردية ولكن اكثر العمال خيانة ما كان يستطيع ان يتمنى فرصة اكثر مواتاه من هذه الفرصة لانتهاب الخزانة من غير ان يناله عقاب» «١٢٥».

اترون ... حتى اكثر الاجراءات التصاقا بمفهوم العدل الاجتماعي . يفسرها مونلر على انها فرصة مواتية للعمال الخونة في انتهاب الخزانة دون ان ينالهم عقاب... هل سبق لنا بعد اطلاعنا على جوانب من برنامج عمر، ان شهدنا ولو دليلا واحدا على هذا الانتهاب من .قبل العمال؟ لا نريد ان نستمر في النقاش وهذا فلها وزن نفسه يناقش هذا الاسلوب الثنائي المصطنع في تقييم منجزات عمر الاقتصادية والاجتماعية

وفلها وزن يتبع في هذه المناقشة اسلوبا اكثر دقة وعلمية، واحرص على الموضوعية من سائر الذين عالجوا الموضوع . لولا انه يقع في خطأين. اولهما خطأ عام هو خطأ منهج البحث الذي يسلكه الغربيون دائما في بحث التاريخ والفكر الانساني لشتى الامم والحضارات والشعوب. وهو منهج يتمركز دائما على التراث والفكر والمواضعات الاوربية. الممزوجة احيانا بصبغة ودوافع مسيحية لا يمكن تجاهلها. الامر الذي اوقعهم دائما في اخطاء ليس من السهل تلافيها .

وفلهاوزن. عبر استعراضه وتحليله لتطور الامور المالية حتى عهد عمر ابن عبد العزيز . مما يعد بحد ذاته بحثا في غاية القيمة. يقع في اخطاء عديدة بحكم التزامه المنهج المذكور . وعلى رأس تلك الاخطاء عدم ادراك طبيعة الارتباط بين الفقه الاسلامي المرن المتطور . وبين الاسس العريضة والاطارات المفتوحة التي يضعها القرآن والسنة. والتي اتاحت للفقهاء انشاء بناء فقهي مساير للتطورات الاجتماعية. لا يدانيه بناء. في الوقت الذي نقرأ فيه لفلهاوزن

---

(١٢٥) المصدر السابق ، نفس الصفحات .

عبارة كهذه « من عادة فقهاء الاسلام دائما انهم. اذا تقررت قاعدة ما شيئا فشيئا تحت تأثير الحاجات او النزعات المتجددة حينا بعد حين. ارجعوها الى البدايات الاولى . وجعلوا لها صبغة مقدسة بردهم اياها الى سنة النبي وسنة الخلفاء الاولين» «١٢٦». ولم يشأ مترجم الكتاب أن يدع احكاما كهذه تطلق على عواهنها فيعلق على العبارة السالفة مثلا بقوله « لا شك ان فيما يقوله المؤلف هنا — وفيما سبق — كثيرا من المبالغات، لان القواعد التي كانت جديدة في صورتها او تفاصيلها لم تكن كذلك في اصولها ومصادرها الشرعية. وطبيعي ان يكون هناك فرق بين الصورة القانونية الفقهية للاحكام وبين صورتها في النصوص الاولى، أو في السنة الأولى، او بين الصور القانونية القديمة وبين القواعد العامة التي تتضمنها النصوص من القرآن او السنة. وهذا معروف في كل العلوم الاسلامية مما لا يجعل صنيع الفقهاء عملا متكلفاً او ادعاء من غير استناد الى نص قرآني أو سنة نبوية، او الى ما يؤخذ منهما من طريق القياس» «١٢٧».

والخطأ الاخر لفلهاوزن هو خطأ شخصي . فمؤرخ بوزنه يبحث الامور بهذه الدقة وهذا التتبع الرائع . كان عليه أن يلم — على الاقل — بالمصادر الاساسية عن الموضوع . ذلك ان اعتماده يبدو منصبا على مصادر محدودة فحسب على رأسها الطبري والبلاذري وابن آدم في كتابه عن الخراج . ثم ابن عبد ربه وابن عساكر — الى حد ما — رغم كونهما من المتأخرين، هذا في الوقت الذي لا يمكن فيه لأي باحث عن اجراءات عمر في شتى المجالات

---

(١٢٦) الدولة العربية وسقوطها . ص ٢٧٣.

(١٢٧) المصدر السابق هامش ٢ (للمترجم عبد الهادي ابو ريدة ص ٢٧٣) . وانظر كذلك: مناقشة لنظرة المؤلف الى الجزية .، ص ٢٦٧ – ٢٦٨ وهوامشها .

ان تتكامل الصورة لديه الا باضافة مراجع اخرى اكثر اهمية وارتباطا من المراجع آنفة الذكر . — على اهميتها — مثل سيرة عمر لابن عبد الحكم. وسيرة عمر لابن الجوزي . وكتاب الطبقات لابن سعد. وتاريخ خليفة بن

خياط فضلا عن المسعودي واليعقوبي وابن الاثير وابن كثير وغيرهم. وهنالك خطأ شخصي اخر يعود الى عدم فهم بعض النصوص فهماً كافياً «١٢٨».

ونعود الى مناقشة فلهاوزن لكريمر ومولار. انه بعد استعراض وتتبع دقيقين لخطوط النظام المالي منذ عهد عمر بن الخطاب الى عهد عمر بن عبد العزيز، وبخاصة فيما يتعلق بالجزية والخراج . وبعد مناقشته الكثير من الامور الضريبية الخاطئة في هذا المجال والتي غدت بديهيات يتداولها المؤرخون «١٢٩» يقول: « على الرغم من أن اشياء كثيرة لا تزال غامضة «١٣٠» . فان ثم شيئا واحدا واضحا الى حد كبير .. وهو ان المؤرخ يجلب على نفسه السخرية، اذا نظر الى عمر نظرة استهزاء مقصود . وهذا هو ما بدأه دوزي . فأعطى بذلك الاشارة لغيره «١٣١» ... وليس من الضروري . بطبيعة الحال ، ان يكون عمر قادرا على تحقيق كل ما اتجهت اليه نيته الطيبة . فمثلا يذكر بعض من لم ينصفه ان الدليل الاكبر على عدم كفاءته السياسية انه ضيع الاموال ولكنا قد عرفنا فيما تقدم حقيقة الامر في ذلك » «١٣٢».

وبعد ان يستعرض فلهاوزن اجراءات عمر العملية بشأن الجزية والخراج وموازنة المالية بالتأكيد على الضريبة الاخيرة يقول « ... وكذلك عني عمر بالحيلولة بين الولاة وبين ان يكون همهم الاول من مناصبهم جمع الاموال

---

(١٢٨) انظر على سبيل المثال : الصفحات ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، وهوامشها .

(١٢٩) انظر الصفحات : ٢٩٣ - ٢٩٤.

(١٣٠) ذكرنا ، قبل قليل ، ان فلهاوزن لم يرجع في بحثه عن عمر الى عدد من اهم المصادر التي لا يمكن اعطاء صورة واضحة المعالم عنه ، بدونها .

(١٣١) يقول دوزي : فدهور دخل الخزينة اكثر زمن الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز الذي لم يبال بالامر ! حتى لقد بعث اليه احد جباته رسالة يقول له فيها : (لو استمر الامر على هذا المنوال طويلا في مصر لجب الذميون دياناتهم ولاسلموا وقل الخراج في بيت المال) فاجابه (وددت لو اسلموا فما بعث الله نبيه جابيا ولكن هاديا) . تاريخ ... مسلمي اسبانيا ١/١٣٨. . وانظر : فان فلوتن ، فيما سبق .

(١٣٢) الدولة العربية وسقوطها ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

لانفسهم . والاغلب ان ذلك عوض النفقات التي اقتضتها اصلاحاته ضعفين... ومهما كان الامر فان الاهتمام بالشؤون المالية ليس هو كل ما يعني الدولة. ومن ذا الذي يكون عنده من الجرأة ما يجعله يستنكر على عمر انه اسقط عن البربر الجزية . جزية الابناء – فقد كانوا يقدمون ابناءهم على سبيل الجزية – وانه خفف العبء على نصارى نجران ، وانه عمل على حماية الرعية من العمال. وانه حرص على الا تكون ادارة الامصار مجرد وسيلة لا ستغلالها استغلالا مالياً ؟ » «١٣٣» .

ونمضي مع مقتطفات اخرى من رد فلهاوزن . انه رد مقنع ومغر لانه ينبثق عن رؤية واضحة للتطور المالي في عصر الامويين ... نمضي معه وهو يسعى الى ازالة الغبش الذي شوه رؤية كريمر ومولر وفلوتن ودوزي وغيرهم. وهو غبش لا يمكن رده بأية حال من الاحوال الى حسن النية والتجرد وعدم الفهم .... « اما فون كريمر واوجست مولر فرأيهما أن عمر تدخل في الامور المالية دون اية ضرورة عملية . جرياً وراء ما صوره له ورعه من مثل عليا خيالية . فأفسد المجرى الطبيعي للمالية واخرجها عن الطريق الذي أدى بها اليه التطور السابق . وهما يزعمان ايضا انه لم تكن عنده اية فكرة عن الاحوال الواقعية . اما الحقيقة فهي بالاحرى ان المؤرخين الذين ينقدون اعمال عمر هم الذين يتصورون الاحوال الواقعية لذلك العصر تصوراً خاطئاً . فلقد كانت هذه الاحوال مضطربة ومحتاجة الى تنظيم جديد . ولم يكن عمر نفسه هو الذي احدث الاضطراب في نظام الخراج . بل كان الاضطراب موجودا من قبل . وما كان يمكن ان يستمر . ولم يكن الواجب الذي اراد عمر الاضطلاع به واجباً خيالياً موهوماً . بل كان واجباً حقيقياً وملحاً ... فأما القاعدة التي تمخضت عنها الحكمة الرومانية . وهي ان دولة لا يمكن ان تعيش الا بالوسائل التي اعتمدت عليها في قيامها . هذه القاعدة التي يسوقها

---

(١٣٣) المصدر السابق ص ٢٩٦ .

(١٣٤) المصدر السابق ص ٢٩٦ – ٢٩٧ .

موللر في اخذه على عمر انحرافه عن سنة سلفه من خلفاء بني أمية . فهي قاعدة يمكن ايضاً ان تذكر في معرض النقد لخلفاء بني أمية انفسهم . ذلك ان حكومتهم لم تكن باي حال من الاحوال سائرة على سنة حكومة النبي « عليه السلام » واصحابه . وهي وان كانت قد ارادت ان تتمسك بالاسلام، وما كان يمكنها ان تتنكر له . فان الاسلام لم يكن من شأنه ان يؤيدها بل ان يقوض الاساس الذي قامت عليه » «١٣٤» ويختتم فلهاوزن مناقشته قائلا «... ولا يمكن التكهن بما كان عمر سيحقق من اعمال . لان خلافته لم تدم الا نحو عامين ونصف ... » «١٣٥»

أهم المصادر والمراجع

ابن الاثير : عز الدين ابو الحسن الشيباني
الكامل في التاريخ . دار صادر . بيروت – ١٩٦٥ .

البلاذرى : احمد بن يحيى بن جابر
فتوح البلدان . تحقيق صلاح الدين المنجد . لجنة البيان العربي القاهرة ١٩٥٦ – ١٩٥٧ .

ابن الجوزي : جمال الدين ابو الفرج
سيرة عمر بن عبد العزيز . تحقيق محب الدين الخطيب . مطبعة المؤيد . القاهرة – ١٣٣١هـ .

ابن عبد الحكم : ابو محمد عبد الله .
سيرة عمر بن عبد العزيز . تحقيق احمد عبيد . ط ٥ . دار العلم للملايين . بيروت – ١٩٦٧ .

ابن سعد : محمد
كتاب الطبقات الكبير . تحقيق ادوارد سخاو . بريل . ليدن – ١٣٢٢هـ.

السيوطي : عبد الرحمن بن ابي بكر
تاريخ الخلفاء . إدارة الطباعة المنيرية . القاهرة – ١٣٥١هـ.

(١٣٥) المصدر السابق ص ٢٠١.

الطبري : محمد بن جرير
تاريخ الرسل والملوك . تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ، دار المعارف . القاهرة — ١٩٦٠ .
ابن كثير : عماد الدين ابو الفدا
البداية والنهاية . مطبعة السعادة . القاهرة — ١٣٥١ — ١٣٥٨هـ.
ارنولد توماس و .
الدعوة الى الاسلام . ترجمة حسن ابراهيم حسن ورفاقه. ط ٢ . مكتبة النهضة . القاهرة ٩٤٧.
ترتون . أ . س .
اهل الذمة في الاسلام . ترجمة حسن حبشي . ط ٢ دار المعارف . القاهرة — ١٩٦٧ .
الدوري : عبد العزيز
مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . دار الطليعة . بيروت — ١٩٦٩.
دوزي : ر .
تاريخ مسلمي اسبانيا . ج١ . ترجمة حسن حبشي . دار المعارف . القاهرة — ١٩٦٣ .
فان فلوتن : ج .
السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات . ترجمة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم . مطبعة السعادة . القاهرة — ١٩٣٤.
فلهاوزن : يوليوس
الدولة العربية وسقوطها . ترجمة عبد الهادي ابو ريدة . لجنة التأليف والترجمة . القاهرة — ٩٥٨ .
الندوي . ابو الحسن علي حسني
رجال الفكر والدعوة في الاسلام . ط ٢ . مكتبة دار الفتح دمشق — ١٩٦٥.

لمحات في حياة الطبقة الفلاحية في العراق الوسيط

الدكتور مضر الدوري

ان المسيرة النضالية التي خاضتها الجماهير الكادحة عبر التاريخ اثبتت ان الهدف الاساس لأي حركة ثورية هو قلب البنى الاقتصادية والاجتماعية القديمة . الاقطاعية منها او الرأسمالية . وابدالها ببنى جديدة قائمة على الاشتراكية والديمقراطية الشعبية .

ان هذه الحركات الثورية تتسم . عادة . بسلوكية خاصة اساسها الفهم العميق والايمان الملتزم بفكرة الصراع الطبقي كمحرك رئيس وقادر على تعبئة الجماهير وتوجيهها من اجل استمرارية الثورة والحفاظ على مكتسباتها . ان هذه السلوكية هي الكفيل الوحيد الذى يمنع امتصاص ثورة الكادحين من قبل اصحاب الامتيازات او الانتهازيين . ويمنع كذلك انحراف مبادئ الثورة وراء شعارات ترفعها عادة بعض العناصر البرجوازية التي لم تتمكن خلال فترات النضال . من الانقلاب على واقعها الطبقي والتحرر منه والانتظام مع مسيرة الكادحين .

في الوقت الذى نؤكد فيه على ان سلوكية المناضل الثورى يجب ان تتميز بالوعي العميق لطبيعة الصراع الطبقي الذي تخوضه الجماهير الكادحة . نؤكد كذلك على ان هذا الوعي يجب ان يرتكز على فهم تحليلي للجذور التاريخية لكل بنية من البنى التي تعمد الثورة على قلبها وتغييرها . وبذلك يسهل فهم جذور الواقع الذي تحياه وتناضله الجماهير الثائرة وعندها سيسهل الانطلاق بخطى سليمة وواسعة نحو مستقبل افضل .

انطلاقا من ذلك ساحاول هنـا ان القى بعض الضوء على الوضع النضالي الذى عاشته الجماهير الفلاحية الكادحة في العراق في عصوره

الوسطى. وقبل ان ادخل في الموضوع أود ان اشير الى نقطتين هامتين:

اولا- ان حضارات العصور الوسطى - والحضارة العربية الاسلامية واحدة منها - كانت حضارات ارستقراطية ازدهرت على حساب مصلحة الجماهير الكادحة. فاعضاء الطبقة الارستقراطية المالكة وربيبتها الفئة الراقية من الطبقة البرجوازية. كانوا هم المنتفعون من الواقع الحضاري الذي عاشوه. بينما نجد ان الغالبية العظمى رزحت تحت وطأة الاستغلال البشع.

ان تقييمنا للازدهار العظيم الذي شهدته الحضارة العربية الاسلامية في العصور الوسطى والمتمثل في التراث الفكري والعملي المبدع الذي ساهمت فيه في مضمار الحضارة الانسانية. لا يمنعنا ابدا من كشف بعض الجوانب السلبية في تلك الحضارة والتي كانت تعمل على اضعافها. وما احوجنا الان وفي مثل هذه الظروف الى ان نكون اكثر واقعيين ونمعن النظر في تراثنا الحضاري القومي لنستكشف عوامل القوة والضعف في تلك الحضارة ونعمل على بعثها من جديد بعد ان نسقط منها سلبيات الماضي ونطبعها بالطابع التقدمي الثوري.

ثانيا- ان فن التدوين التاريخي هو في الحقيقه أحد أهم المظاهر الادبية في تراث الحضارات الانسانية. وهو يعكس طبيعة الحضارة التي ينسب اليها. اذن فان فن التدوين التاريخي للحضارة العربية الاسلامية يمكن ان يعكس لنا طبيعة تلك الحضارة التي وصفناها بانها حضارة الطبقة الارستقراطية المالكة وربيبتها الفئة الراقية من الطبقة البرجوازية.

فكتب التاريخ العديدة. سواء ذات الصبغة العامة او المحلية. نجدها تهتم اولا وعلى نطاق واسع بأسماء وأنساب واقوال وافعال وصفات رجال الطبقة الارستقراطية والبرجوازية وتكاد تغفل - إلا ماندر - احوال الطبقة العامة. وحتى في حالة ذكرها شيئا عن حياة العوام - الذين كانوا يوصفون من قبل مؤرخي تلك التواريخ بالرعاع، السلفة، الغوغاء، الطغام، السوقة.. الخ

فأنه غالبا ما يكون ذلك الذكر مقتضبا، مشوشا، مبالغا فيه، ومتحيزا ضد العامة. من ذلك كله جاءت صعوبة جمع المادة التاريخية اللازمة لرسم صورة اكثر واقعية لحياة الطبقة العامة وخصوصا الفلاحين منهم.

على اية حال ، ان المعلومات المتجمعة لدينا تشير الى ان الفتح العربي الاسلامي لكل من العرق وسوريا ومصر كان ضربة قوية للطبقات المالكة الاقطاعية الساسانية والبيزنطية. فاقطاعيات هذه الطبقات قد استصفيت من قبل الدولة الاسلامية ووضعت تحت تصرف الخليفة.

ان الضربة كما قلنا كانت موجهة للطبقة المالكة ألاقطاعية نفسها الاانها لم تكن موجهة لقلب البنى الاقتصادية والاجتماعية التي يقوم عليها النظام الاقطاعي الذي تسود فيه صيغ من الانتاج القائمة على الاستغلال الجماعي او الفردي. على العموم، ان الحكم الاسلامي اقر طبيعة الكثير من البنى الاقتصادية القديمة وابدل فقط قسماً من المنتفعين؛ الاانه لم يغير صيغ الانتاج مما مهد الطريق الى تبني البنى الاقطاعية من قبل القبائل العربية الفاتحة بدوية كانت ام حضرية. بذلك نجد ان المجتمع العربي تحول من قبلي رعوي الى قبلي زراعي وتحولت الارستقراطية القبلية الى ارستقراطية اقطاعية وتجاريه. فما أن فتح السواد «ارض العراق» حتى طالب الفاتحون . خصوصا القواد الارستقراطيون والبرجوازيون الخليفة عمر بأن يقسمه بينهم. كذلك حدث نفس الشئ عند فتح الشام ومصر. ولو فتشنا عن زعماء هذه الحركة المطالبة بالتقسيم لوجدنا بينهم عبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام، وبلال الحبشي .

ان تطلعات هذه الفئة نحو احتجاز المزيد من الثروات والاراضي الزراعية تنعكس في الحاحهم الشديد على الخليفة عمر بالتقسيم . فما كان من عمر الاان رفع يده الى السماء يدعو الله عليهم قائلا «اللهم اكفني بلالا واصحابه» وتذهب الرواية الى ان الله استجاب دعائه فمات بعضهم بطاعون عمواس سنة ١٨هـ. «١»

استطاع عمر – الى حد ما– ان يقف بوجه ذلك التيار الذي ترأسه بعض

---

(١) أبو يوسف ، الخراج ص ٢٦ .